الأرمن... إبادةٌ ومواقف

ملحوظة: حقوق الطبع جميعها محفوظة للمؤلف
عنوان الكتاب: الأرمن... إبادة ومواقف
اسم المؤلف: داود مراد ختاري
رقم الإيداع: ٢٠٢٤/٢٠٣٨١
الترقيم الدولي: ٢٧ ـ ٨٢٧٩ ـ ٩٤ ـ ٩٧٧ ـ ٩٧٨
المدير العام: د. عزة حسن
نائب المدير العام: د. أحمد الشريف
تصميم الغلاف: كليم
التنسيق الداخلي: فلاح العيساوي

الطبعة الأولى
١٤٤٦ هـ ٢٠٢٤ م

دار كليم للطباعة والنشر والتوزيع
مصر ـ القاهرة
جوال: ٠٠٢٠١٢٠٦٦٤٠٤٦٥

E-mail : dar.kalim1953@gmail.com

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

داود مراد ختاري

الأرمن...
إبادة ومواقف

٢٠٢٤

كلي للنشر والطباعة والتوزيع

المقدمة

الشعب الكوردي (المسلمين والإيزيدية) والأرمني عاشا منذ آمد بعيد على رقعة من الأرض متحابان وتعايشا بالسلام والأمان والتعاون بينهما، لكن بعد مجيء الدولة العثمانية، واستعمال سياسة فرق تسد بين المكونين في المنطقة، ومحاربتهم للأرمن والكورد معاً، حاولت هذه الدولة استمالة بعض وجهاء الكورد إلى جانبهم وتأسيس أفواج من الجحوش والفرسان الحميدية، وهؤلاء كانوا الأداة لقتل الأرمن وقمع كل الانتفاضات الكوردية، ولكن ما أساء إلى سمعة الشعب الكوردي هو المشاركة الفعالة والعلنية للفرسان الحميدية في حملة إبادة الأرمن أثناء الحرب العالمية الأولى، ولكن تصرفاتهم لا يعني ان الشعب الكوردي شارك في هذه الحملات، نعم خلق فتور بين المكونين، وكان للشعب الكوردي بشكل عام والكورد الإيزيديين بشكل خاص دور كبير في حماية الأرمن من الاضطهاد والقتل.

وقدم الإيزيديين ضحايا كثيرة وهجروا من كافة قراهم من مناطق سرحد (المحافظات الحدودية بين تركيا، أرمينيا وايران) وكانت نسبة ضحايا الإيزيدية ضمن إبادة الأرمن في تركيا حوالي ١٧%، هذا وتحدثت بالتفصيل للسادة (رئيس الجمهورية، رئيس الوزراء، ووزير الخارجية لحكومة أرمينيا الغربية) وهم المشرفين على كل الملفات للإبادة في الحرب العالمية الأولى، وذلك في يوم ١٨ نيسان ٢٠١٧م أثناء زيارتي إلى أرمينيا.

هنا نتذكر مواقف الكورد لكل من حجي برواري، وعشائر بهدينان، حمو شرو حاكم جبل سنجار، إسماعيل جول بك، وأخرين.

يشتركان الإيزيدية والأرمن في تحمل مأساة الإبادة ولهما تاريخ مشترك للدفاع عن بعضهما وكانوا يقطنون في الكثير من القرى المشتركة، وخير دليل على ذلك التعاون بينهما في حملة إبادة الأرمن أثناء الحرب العالمية الأولى:

١- قاد جانكير أغا المندكاني الإيزيدي بالتعاون مع القوات الأرمنية حملة كبرى ضد الجيش العثماني في منطقة سَرحد وبحيرة وان.

٢- إنقاذ (المطران آدي شير) وجماعته من سجن ماردين من قبل رجال الإيزيدية ١٩١٦، ولكن للأسف نال المطران ادي شير الشهادة لاحقا.

٣- إيواء (٧) قرى أرمنية في قرى قبيلة باسان الإيزيدية وعلى أثر ذلك تم إبادة القبيلة الإيزيدية يوم ١٤-٥-١٩١٦

٤- كان قائد جيش بطرس أغا في منطقة هكاري هو (خديدة الإيزيدي) ونتيجة بطولاته واستبسالات الإيزيدية في المعارك، واستشهاده في احدى المعارك، لذا سمي بطرس أغا ابنه (خديدة)، وكان ينادونه (أبو خديدة)

٥- إيواء (٢٠٠٠) الفي شخص في جبل شنكال من قبل حمو شرو وإسماعيل جول بك، وتصدى الإيزيدية حملة عثمانية على شنكال وقدموا ضحايا ولم يسلموا الأرمن اليهم.

٦- تم إيواء الأرمن في القرى الإيزيدية في كافة المناطق، ونسبة ضحايا الإيزيدية في حملة إبادة الأرمن كبيرة.

٧- الضابط البحري جميل كونى، الملقب (جميل بحري) وهو من أصول إيزيدية الذي استطاع ان ينقذ مئات العوائل الأرمنية من المذابح.

واجه الأرمن واليزيدية العديد من المظالم والفظائع بسبب ثقتهم بأنفسهم. لقد قتلوا، ونُهبت منازلهم وممتلكاتهم، وشردوا وهاجروا. ومع ذلك، بسبب آلامهم الاجتماعية والعاطفية، اجتمع هذان المجتمعان، وقدما مكافآت باهظة من الأرواح، ووقفا مع بعضهما البعض. أصبحوا عمليين وداعمين.

من خلال مذكرات عوائل الفنانين الذين تعرضوا للظلم والقتل، وتعاون الكورد المسلمين والإيزيدية لهم، فهؤلاء الفنانين قابلوا الحسنة بالحسنة أمثال ارام دكران جميع أغانيه باللغة الكوردية وكذلك إبراهيم كيفو جل أغانيه باللغة الكردية، والفنان الكبير كارباتي خاجو جميع أغانيه باللغة الكردية، ولم يكن يجيد اللغة الأرمنية، الا في السبعينات من العمر.

بصدد هذا الملف استمعت إلى مقابلة السيد كاكشار اومري وريشاد مع الفنان ارام ذكران الذي تحدث عن مأساة والديه، وكذلك اللقاء مع الفنان إبراهيم كيفو وعلي شلاش عن معاناة والدي إبراهيم، وكان جانو كزبر يعيش في دار عمي (حجي خديدة)، بينما اعتمدت على المصادر واللقاءات عن إيواء ودفاع أهل سنجار عن الأرمن.

اود ان انوه باننا اعتمدنا على ذوي الضحايا في سرد قصص إبائهم وأجدادهم، ومصادر كتابنا هذا من ذاكرة المجتمع، مع ذكر بعض المصادر الكتابية أيضاً.

الشكر والتقدير لـ(رحاب عوض) على مراجعة الكتاب وتقيمه.

الإبادة العثمانية للأرمن في (١٩١٥- ١٩١٦)

تـاريخ دمـوي مـدقع فـي القـدم مضـرَّج بالـدماء حـدَّ اللارتواء من الارتواء... وصفحات غائرة في حناء جرائم اعتـادت غَـرْف كـؤوس الـدماء حـدَّ الثمالـة فـي ديجـور العنف البشري السادي..

هوس متأصل وديمومي حيٌّ في جذور العروق منذ زمـن، متمثل بـ"المصلحة"- باسـم الـدين - تلـك الزاويـة المظلمـة المتحكِّمـة التـي لا تـؤمن ولا تعتـرف بصـلات القربى والـدم.. فكيف لهـا أن تـرحم المختلـف مـن حِـدَّة نصالها إذ يقع بين مخالب نواياها ومآربها!

لنُصغِ إلـى همـس التـاريخ وهـو يستنكر فـي نفسـه مـن لطَّخ صفحاته ويخبرنا بأن:

الخـلاف الناشـب بعـد وفـاة "أرطغـرل" بـين أخيـه "دونـدارو" وابنـه "عثمـان" انتهـى إلـى قتـل الابـن لعمـه للاسـتيلاء علـى الحكـم، السـلطان محمـد الثـاني فـاتح استنبول أصدر فتوى شرعية تفضي إلى قتل شقيقه لأجل

وحدة الدولة ومصالحها العليا، ابنه محمد الثالث قتل أخوته التسعة بعد تسلمه للحكم ليكون الأول بلا منازع وقتل ابنه الصغير لتكون السلطة لابنه الأكبر اليافع، السلطان سليم قتل شقيقيه لرفضهما سياسة وأسلوب العنف الدموي.. والتفاصيل الأخرى رهن ما أتيح للتاريخ البوح به..

والمثير للعجب أن القاتل والمقتول كلاهما كان يتطلع إلى خلافة إسلامية.. فهل مفهوم الدين هوما أفسد صلة القربى بشكل خاص والإنسانية كمضمون عام أم مادية الدنيا!

ناهيك عن ذلك، فإن صفحات التاريخ المتقيئة للدماء لا تسمح للتاريخ بأن يرينا المزيد من التفاصيل...

فلا غرابة إن سُحِقت دماءُ شعوب بأكملها، اختلفت بالمعتقد الديني واعترضت سير حياتها هكذا وحوش ضارية فأضحت فريسة مستساغة مستباحة على طبق من صمت هذا العالم الرائي الأبكم..

يأخذنا إفصاح التاريخ إلى (١٩١٥- ١٩١٦) إلى تلك الحقبة الزمنية حين سعت الدولة العثمانية إلى بسط سيطرتها وترسيخ الهيمنة التركية الإسلامية في منطقة الأناضول الشرقية في ظل تشكيكها بمدى ولاء الطائفة

الأرمنية المتواجدة في حدودها والطامحة إلى تحقيق الحكم الذاتي، فاتجهت خطتها وسياستها إلى العمل الجاهد على سحق تلك الأقلية والقيام بذلك على مراحل، وتنفيذ عمليات الإبادة بأوامر من باشاوات الترك وفرض سياسة التتريك، فنالت أقلية الأرمن حصتها الوفيرة من سلسلة الإبادة بالجرائم الدموية والفظائع والانتهاكات التي مورست بحقها بشتى صور القتل والاغتصاب والنهب والتهجير.

كانت أولى خطواتها أن عمدت إلى مطاردة المفكرين وأعيان الأرمن وقادتهم واعتقالهم وترحيلهم من إستنبول إلى أنقرة حيث تم قتلهم وتصفيتهم بالكامل، واقتياد الرجال والشباب اليافعين إلى أماكن بعيدة مجهولة للإجهاز عليهم في مقابر جماعية وقتل النساء والشيوخ والأطفال بوحشية وإرغام الكثيرين منهم على السير في الدروب القاسية والصحارى إلى بلاد الشام حيث لقوا الأهوال وسواد الأقدار.

كما تعمدت إبعاد الأطفال منهم عن أهلهم وذويهم بغية زجِّهم في بوتقة المجتمع التركي الإسلامي، بالإضافة إلى ما تعرض له الفارون ممن بقوا على قيد الحياة في المسالك الموحشة من هجمات ضباط الإقليم

والعصابات البدوية والمدنيين والتشرد والجوع والمرض والضياع. ففي عام ١٩١٤ تم تدمير المدارس والأحياء السكنية وتسوية الكنائس والأديرة بالأرض وتحويل بعضها إلى مساجد بغية الإطاحة بالتراث التاريخي والديني والفكري والثقافي حتى أن عدد ضحاياهم آنذاك وإلى حين عام ١٩٢٠ كان قد تجاوز المليون نسمة وعلى مرأى العالم الذي ركن إلى الصمت بلا حراك.

وهكذا أضحى الشعب الأرمني مشرداً مطروحاً في بقاع الأرض المختلفة، يبحث عن ملاذ أمان وحماية، وكانت هنالك مناطق كثيرة مستعدة لإيواء تلك الأسر والعوائل المبعثرة في كل مكان إلا أن الخوف كان يتملكها من سخط الدولة العثمانية التي كانت تصب جام غضبها على كل من يحمي الأرمن ويهيئ لهم سبل العيش والاستقرار.

لقد عمدت إلى تهديد المناطق التي تحتضن الأرمن وترعاهم، وشرعت بالبحث والتفتيش عمن نجا منهم ولا يزال على قيد الحياة للإجهاز عليهم ومحو أثر هذا الشعب من على وجه الأرض. وكانت القرى الإيزيدية تقوم بإيواء من يصل إليها من الأرمن الفارين من آلة البطش والعنف، بينما يستمر الجنود العثمانيون

بملاحقتهم واقتحام البيوت لإلقاء القبض عليهم حيثما كانوا، فكانت تهدد الإيزيديين بتوجيه حملاتها العسكرية إلى مناطقهم وتدميرها.

وأتت بفتاوى تحلل دم الأرمني فهو كافر لكونه غير مسلم، وغرست في قناعات هؤلاء المتخلفين فكرة أن سفح دم الأرمني يضمن بلوغ الجنة، فحفزت الفكرة بعض هؤلاء الحمقى من مسلمي الترك والكرد للدأب في البحث والعثور على أرمني يحقق إهراق دمه جسر عبور إلى رضى الله والإسلام.

في صلب السرد يتجلى ما رواه أصحاب التجارب من الأحداث والمواقف بشكل مفصل، وما خصَّ المجازر والمذابح التي نفذت بحرفية الحقد وإبداع الضغينة، انطلاقاً من المصالح تذرعاً بالدين، فما ارتكبته الدولة العثمانية لا يمكن أن يصدقه عقل أو يأتي به خيال خصيب بابتكار الغرائب أو بالتقاط صور لأقسى وأبلغ طاقة إيلام يمكن أن يحملها الشرّ.

لم تبرح تلك الفترة المشؤومة ذاكرة الأرمن حتى اليوم وظلت لدى من شهد تلك الحقبة جرحاً لا ينفك ينزف بالاستذكار فمهما وثقوها لن ينصف التعبير أو يجاري جسامة الحدث الجلل الذي ألمَّ بهم.

آرام يسرد مأساة والده دكران الأرمني

تأخذنا العودة إلى ذلك الزمن وتلك الأحداث إلى الإصغاء إلى صوتٍ من تلك الحقبة تم تناقله جيلاً بعد جيل، إلى ما رواه آرام عن لسان أبويه الناجيين بمعجزة إلهية من آلة القتل والموت ومذبحة ابتلعت الآلاف آنذاك.

سرد آرام نقلاً عن والديه ديكران وآزنيف بعضاً مما شهداه في تلك الأيام ووثقاه باللغة الأرمنية حيث تمت ترجمته إلى الكردية فالعربية من قبلنا (الكاتب) وبقيت شاهداً حياً على مجريات سنوات الإبادات المرتكبة بحق الأرمن.

وحسبما ذكرا إن طبول الموت المتجه نحو الأرمن قُرعت وعلا صوتُها في الأرجاء في اليوم الرابع والعشرين من شهر نيسان من عام ١٩١٥ حيث أعلنت عن بدء الحرب العثمانية في إبادة الأرمن وقتلهم على شكل دفعات متتالية واستمرت رحى المجازر والمذابح تطحن الأرمن حتى سنة ١٩١٨م وتزهق أرواح الكثير من الناس الأبرياء.

شاء القدر أن يلتقي ديكران وآزنيف بينما كان كلٌّ منهما ينتمي إلى منطقة مختلفة، ثم شاء القدر أن يتزوجا في شمال البلاد (تركيا - شمال كوردستان) ولا يُعرف بالضبط ما إن كانوا قد عبروا إلى جنوب الحدود (سوريا - غرب كوردستان) في سنة ١٩٢٥م أم في سنة ١٩٢٨م حتى تمكنوا من النجاة من الموت.

لقد كان لكليهما التأثير البالغ على آرام ديكران على الصعيد الفني إلا أن آرام كان يتحدث عن والده أكثر مما يفعل عن أمه.

عندما جاء الأستاذ آرام ديكران في أحد الأيام لرؤيتي حدثني عن قصة والديه وسرد لي مجرياتها وتفاصيلها كالتالي:

كتب والداي قصة حياتهما وما مر فيها من أحداث ولا يزال ما وثقاه موجوداً عندي أحتفظ به لأهميته البالغة كحدث يستمد أهميته من كونه يلامس والداي من جهة ولكونه مرجعية هامة في التاريخ الدامي للشعب الأرمني من جهة أخرى، ولابد لكل شعب من أن يعرف تاريخ جدوده ويحفظه عن ظهر تجارب واقعية ليدرك موقعه وحيثياته في هذا العالم الشائك بكل شيء.

ربما يجدر بنا أن نلاحظ النظرة البعيدة التي كانت لدى ديكران وزوجته والرؤيا المستقبلية والوعي الكبير الذي كانا عليه، والذي مكنهما من كتابة مجريات حياتهما الطويلة الممتدة بصورة مفصلة في سنوات المذبحة التي تعرض لها الأرمن.

من هنا طلبت من الأستاذ آرام ديكران أن ننقل تلك الكتابات والمذكرات من اللغة الأرمنية إلى اللغة الكردية ووافق على هذا المقترح فبدأنا العمل على ذلك.

لم يكن الأمر سهلاً وقد أكل الزمن وشرب على تلك الصفحات المهترئة لكننا عملنا على إحياء مضمونها برغم الجهد والعناء لإنجاز الهدف في غضون شهر واحد، كان يقرأ محتوى السطور باللغة الأرمينية ومن ثم يترجمها لي بالكردية شفهياً ثم أقوم بترجمتها وكتابتها على الورق.

لن أنسى أبداً تلك اللحظات التي كان يقرأ فيها آرام مذكرات أبويه التي كانت غصة تعتصر قلبه وتنهش أوصاله إلى حدِّ أنه كان أحياناً لا يقوى على منع دموعه من الانهمار وفي أحيان أخرى كنا نتشارك الألم ونتقاسم الوجع ونبكي معاً.

لنقرأ معاً قصة شاهدين بقيا على قيد الحياة وتمكنا من النجاة واللَّوذ بروحيهما من تلك المذابح في تلك السنوات السوداء المشؤومة من سنوات المجازر ضد الأرمن:

اسمي "ديكران مليكيان" ولدت وترعرت في قرية "بعمدي" التابعة إلى مدينة "سامسون"، تكونت عائلتنا من

اثني عشر فرداً، وعندما بدأت المذبحة بحق الأرمن في سنة ١٩١٤م كنت ابن الأربعة عشر عاماً، كنت الطفل الوحيد الناجي من بين أفراد أسرتي من المجزرة، وآنذاك كانت السلطات العثمانية تقوم باقتياد جميع العوائل الأرمنية على شكل مجاميع إلى جهات بعيدة مجهولة، لم يكن أحد يعرف الوجهة التي كانوا يسوقون إليها تلك الجموع الأرمنية، لقد كان الطريق طويلاً شاقاً وكان كل شيء غامضاً مبهماً بخصوص نقطة الوصول وما يليها مما يخبئه لنا الآتي..

الجميع في سيرٍ دائم في آخر مطافه قاموا بقتل الصغار والكبار من نساء ورجال ومسنين بجميع أنواع الأسلحة من سيوف وسكاكين وسواها، لم يكونوا بشراً بل حيوانات ضارية مفترسة لا تعرف الإنسانية، لقد ذبحوهم كالدجاج وقطعوا رؤوسهم دون رحمة أو شفقة لم يكن مهماً عندهم ما إن كانوا أطفالاً أو نساءً أو شيوخاً أو رجالاً، لقد كان جلُّ غايتهم سحق الأرمن من الوجود وإفناءهم بالكامل وإفراغ الأرض منهم وحرمانهم العيش.

حتى أنهم كانوا يأخذون كبار السن من الرجال والنساء ويقومون بإعداد محرقة جماعية لهم وليس

كذلك فحسب بل يدأبون بالبحث عنهم في كل بيت وحي وقرية كي يتأكدوا فيما إن كانوا قد أجهزوا على الجميع ولم يبقَ لهم أثر أو أن أحداً منهم قد أفلت من قبضتهم قد يحيي إفلاته وجودهم.

لقد كان ذلك القدر الذي لطالما تحدثوا عنه القدر الأسود الذي أوقعه وحكم به العثمانيون علينا نحن الأرمن وكتب على جباهنا القدر وكان من نصيبنا.

لا أستطيع إغماض عيني عما حدث وردع لساني عن النطق به سأكتب كل ما رأته عيني وسمعته بأذني:

كل ما حدث في سنة ١٩١٥م جعل العالم كله يقف مشدوهاً ومتعجباً وإلى يومنا هذا يتحدث الجميع عن تلك المجازر والمذابح بحق الأرمن على أنها مأساة تاريخية حزينة ومؤلمة، وعلى ما أعتقد أن ما رأيته بأم عيني لم يحدث قطُّ في هذه الحياة ولا يمكن أن يتكرر أو يحدث مثله مرة أخرى أو يحدث في أية بقعة من بقاع العالم.

اسودت الدنيا وأظلمت وكأنما شيء مهول أو زلزال مرعب سيحدث وتحل بنا مصيبة، وكان الأرمن آنذاك حين يرون السماء على هذه الحال والشاكلة يتنبؤن باقتراب الخطر وبكارثة ستحدق بهم ويعتبرون ذلك

إشارة وعلامة تنذرهم من صدور أمر من قبل العثمانيين ينتهي إلى إبادتهم وكان ذلك بالفعل.

وكان الأمر كالتالي: "اضربوهم، اقتلوهم، احرقوا قراهم ومدنهم وانهبوها، قوموا بذبحهم جميعاً، امحوا أثرهم كيلا يبقى أرمني منهم على وجه هذه الأرض".

هذا ما صدر عن كبيرهم "السلطان عبد الحميد" الذي قال: من اليوم ولاحقاً لا أريد سماع كلمة (يان) أو كلمة (الأرمن) في أذني، لكنه لم يكن يعلم حين أمر بذلك أن كلمة (يان) ستحيا بإرادة الحياة رغماً عنه وعن كل شيء مدى الأزمان.

في تلك الفترة كان الألمان والروس منخرطين في القتال وكان الألمان والعثمانيون في تحالف مشترك في بادئ الأمر، أصدروا الأوامر بإلقاء القبض على كل من هم في سن الخدمة العسكرية ثم قاموا بإمساك كل من أتم سن العشرين من عمره إلى الخمسين وأخذوهم، وبادروا إلى جمع كل ما كان بحوزة الأرمن من أسلحة وصادروه، وبعد تطبيق هذا الأمر لم يبق في المناطق والقرى سوى المسنين والكهول، وكانت الظروف أجواء حرب مع الروس وفي الوقت ذاته كانت عمليات إبادة الأرمن مستمرة.

ثمة أشياء كثيرة حدثت كنت قد رأيتها بعيني تؤلمني ولا أريد استذكارها، فعلوا كل ما مكنهم منه جبروتهم وغطرستهم، داهموا البيوت نهبوها وأفرغوها من ممتلكاتها الثمينة وأخذوا كل شيء ذي قيمة من بيتنا وبيوت الناس وقاموا بتحطيم ورمي كل ما كان لا نفع لهم فيه.

أكثر ما يحرقني رؤيتي لهم يسوقون الناس كقطيع الأغنام للذبح ويبقرون بطون النساء الحوامل بالسيف ويخرجون الأجنة ويرفعونها عالياً ويهللون ويضحكون ثم يرمونها بعيداً على الأرض.

لقد سفكوا دماء الأطفال والأمهات بلا أدنى شفقة أو رأفة، في ذلك الوقت وفي تلك الدقائق العصيبة حيث لا نجدة لاستغاثات البشر، تذكرت جهنم، نعم إنها ذاتها أراها الآن، أشهدها، أعيشها وأبصرها بكل عذاباتها ونيرانها ووقودها... نعم، أراها بملء وعمق إحساسي...

شهدت سعارها بأعلى درجات لهيبه بعيني التي لا تزال تبصر النور، وحتى السماء في ذلك الوقت كانت ترسل إلينا نيرانها وتلقي بشررها ولهيبها فوق رؤوسنا ومع ذلك كنا نرفع أيدينا إلى السماء ونستغيث: ((سور كرابيت)) يا أيتها الذات المقدسة أين أنت؟؟!

لكن للأسف لم يكن هنالك "سور كرابيت" لم يكن هنالك أي شيء لا صدى للصوت، لم يظهر حضرة السيد المسيح في مكان ما، لم نلمح بارقة أمل بغوث أو بنجدة أو خلاص.

لم يكن أحد في الأرض أو حتى في السماء يسمع صراخنا وعويلنا، ما من أحد يكترث لآهاتنا وآلامنا وجراحنا النازفة، كل شيء في لحظة واحدة أغمض عينيه عما يحل بنا وأدار ظهره لمصابنا، وتركنا نلقى حتفنا وحيدين على هاوية الفناء دون مغيث..

توقفت الحياة لوقت حين حضر وحط الموت رحاله تنحَّى العالم عنا بل وقف ضدنا، يا إلهي جميع الأرمن قرأوا كتاب الإنجيل المقدس وكيف قاموا بصلب المسيح على ذلك اللوح الخشبي!

كان العثمانيون يقتلون شبابنا بشتى الأساليب والأدوات بالبنادق والخناجر والنار والماء وبكل ما يمكنهم من زهق الأرواح، لقد ابتعد الله عنا كثيراً بينما اقترب إبليس وجثم أمامنا.

في الحقيقة إني أسرد لكم تفاصيل ما جرى لكني في بعض الأحيان أمقت استرجاعها والاسترسال في الحديث عنها لماذا؟ لأني حين أستعيد ما جرى بعظمته

وهوله وقسوته أقف مشدوهاً تلطمني الصدمة من حيث أنني برغم حدوث ذلك كلِّه.. لازلت أتنفس الهواء ولازلت على قيد الحياة!!

بأعجوبة أنا لازلت حياً أعيش وأروي ما حدث، ولطالما كدت أسقط في قبضتهم لكني لذت بالفرار بالإضافة إلى صعوبات ومآزق كثيرة لا تُحصى كانت قد اعترضت غريزة بقائي على قيد الحياة أتذكر أني كنت دائماً أحترق في نار من التوتر والقلق والرعب أن أقع في شراكهم وغالباً ما كنت أنجو وأهرب في ظلام الليل.

يا كثر ما اعترضت طريقي الذئاب والكلاب والحيوانات الضَّارية في تلك البراري الواسعة الممتدة إلى الضياع والمجهول المُهاب، تلك البراري الخالية من الناس والبشر.. وأعجب كيف استطاع جسدي المنهك مقاومة تلك المعاناة وطعامي الدائم لم يكن سوى الأعشاب والنباتات والماء حيث ألقاه.

قضيت أياماً وشهوراً طويلة في دهمة الليالي وعتمتها أسائل نفسي... الأسئلة والهواجس التي طرقت تفكيري كانت كثيرة ورأسي قد ضجَّ وازدحم بها، والآن إلى أين أمضي ودون وجهة؟!

إلى أين سينتهي بي الركض واللهاث؟ في أية محطة سينتهي خوفي؟! لقد نفذ صبري واحتمالي لِمَ لا تنشق هذه الأرض فتخبئني في جوفها، أو تبتلعني وتنهي معاناتي ومأساتي ووجودي بالكامل!!

حين كان الظلام يسدل ستاره وتمتد ساعاته الثقيلة لم أكن أصدق أن الفجر سيشرق وأني سأكون حياً عند شروق الشمس كنت أنتظر قدومه لمواصلة مسير الدرب الشاقّ.

في أحد الأيام وبعد أن قطعت البراري والوديان قررت التوجه إلى قريتي المنكوبة التي اشتقت إليها، أردت أن أرى وجهها الحزين وأصغي إلى شجنها وألمها وأقف على أطلال أهلها وأناسها الذين غادروا الحياة بمشيئة الطغاة السفاحين، أردت أن أعرف أحوالها وما آلت إليه.

حين بلغت مشارفها ودخلتها اتجهت إلى حيث بيت أسرتي، لم يكن منزلاً كان بقايا حياة سحقت، كل ما فيه كان يشتكي الألم وحرقة الفراق، كل ما كان فيه من جِرار وأوانٍ كان محطماً وقد نهبت محتوياته من القمح والطحين والمؤونة، حتى الماشية مما اقتناه أهل قريتي من أبقار وأغنام وطيور ودجاج لم يكن لها أثر، إما ساقها

العثمانيون إلى ديارهم أو قتلوها، كما أنهم سرقوا القطع والأشياء الثمينة من جميع البيوت.

حين رأيت بيت أسرتي على هذه الحالة اجتاحتني رعشة قوية وشعرت بأني قد أصبحت وحيداً في هذه الدنيا، غصناً مقطوعاً من شجرة الحياة الطبيعية، لا أب ولا أم ولا أخوة ولا جيران ولا أقارب أو معارف وأصدقاء... حقيقة أني أصبحت وحيداً، لا أحد معي في هذه الحياة..

ثم تبادر إلى مسمعي صوت لم أميزه، كل ما تمكنت منه هو البكاء والصراخ والندب والاستغاثة بالله.. رباه: لمَ تركتني أحيا هكذا حياة لِمَ لمْ تأخذني إلى حيث أخذتَ أهلي وأقاربي فتنهي شقائي براحة أبدية؟!

وعلى إثر ذلك الصوت هرعت مسرعاً للخروج من المنزل وواصلت الركض بعيداً عنه برغم العطش والجوع الذي كان ينهشني، وبذلت أقصى ما بوسعي لأخرج من القرية التي حتى الكلاب فيها أنكرتني وهاجمتني قبل أن أتجاوزها بمسافة قصيرة، كنت تارة أركض وتارة أخرى ألتفت خلفي لأطمئن لاتساع المسافة بيني وبينها، لم أستطع إحصاءها لكنها كانت كثيرة والنور في عيني كاد ينطفئ لشدة خوفي وتوتري، ولكثرة ما التفتُّ إلى

الخلف دون وعي أو تيقظ لما يمكن أن يكون أمامي لم أجد نفسي إلا وقد هويت في حفرة..

كانت إحدى الحفر التي يستخدمها الناس كمخازن لحفظ وتخزين القمح وفيها وقعت... وفي يدي حجارة أخذت أرمي بها الكلاب التي كانت تنبح وهي تطاردني حتى تراجعت وخرجت من تلك الحفرة بصعوبة بالغة، وكان الظلام دامساً ولم يكن القمر في قبة السماء موجوداً حينها، وأنا الطفل التائه الوحيد الذي لا يعي ما يفعل أو إلى أين يتجه وما يمكن أن ينتظره من صعاب ومشاقّ بعد؟!

كثيراً ما كنت أسأل نفسي ماذا ينبغي عليَّ أن أفعل؟ وأي طريق عليَّ أن أسلك؟ كنت أمشي خبط عشواء في تلك الحلكة والليالي! كنت أمسك بطريق إثر آخر، أحياناً أتعثر وأسقط على الأرض وأحياناً تبتلعني الحفر لمرات في طرقات وعرة لم أكن أعرف عنها أي شيء أو ما يمكن أن يكون فيها.

وبينما أواصل سيري استشعرت طراوة أشياء تحت أقدامي لم أميزها لشدة الظلام ثم بادرت إلى لمسها علِّي أتحسَّسها وأعي ماهيتها، وحين انحنيتُ بجسدي المنهك وشرعت بلمسها انتابتني قشعريرة واجتاحت أوصالي

رجفة بل رجفات.. يا إلهي إنها جثث.. إنها جثث موتى..!!

كنت أمشي فوقها وكانت مكدسة تفترش الأرض لم تكن جثة أو اثنتين أو ثلاثاً لقد كانت كثيرة جداً لا يحصيها العدّ، كانوا جميعهم من الأرمن الذين اجتاحت قوات العثمانيين قراهم وديارهم وقادتهم بعيداً عن ديارهم ثم سحقت أرواحهم وسفكت دماءهم وتركتهم على الأرض طعاماً للضواري دون دفن.

رائحة الجثث المتفسخة أصابتني بالغثيان وصدعت رأسي، لم أكن أعرف أين أنا على خارطة الأرض وما عليّ فعله، لا يمكنني فعل أي شيء سوى انتظار الآتي، يا إلهي هؤلاء القتلى جميعهم كانوا أهلنا وأصدقاءنا وأقرباءنا وجيراننا، في تلك اللحظات لشدة خوفي وانهياري لم أستطع مواصلة السير؟

ما هذا القدر البائس الذي كُتب عليهم ويا لها من محطةٍ أتوقف عندها..!!

تجمدت في مكاني ولم أعد أقوى على الحراك، ثم تمالكت نفسي بعض الشيء وهممت بالنظر إلى تلك الجثث علَّني أتمكن من التعرف على أهلي وأناسي بين

هذا التراكم الهائل برغم هذا الظلام البالغ أشدَّه، رباه.. كيف لي أن أرى أو أميزهم!

في تلك اللحظات كنت ظامئاً للماء فسمعت صوت خرير الماء وأدركت أن ثمة ماء جارٍ لم أعرف مكانه، لكني سرت باتجاه مصدر الصوت فبلغت المورد وأخذت أملأ يديَّ بالماء وأشرب منه، لقد كان شديد الملوحة والمرار ولذلك على الفور شعرت بالغثيان وأخذت أتقيأ ومعدتي تلفظ ما ابتلعته منه.

مكثت طويلاً في حالة من العجز عن فعل أي شيء بلا أية بارقة أمل الخلاص بلا أي مخرج يغير حالي وينقلني إلى ضفة أمان، لم يكن أمامي سوى أن أتمدد على الأرض وأخلد إلى النوم.

عند شروق الشمس أفقت على نورها وبادرت إلى تأمل جثث القتلى لكني لم أستطع أن أميز أحداً منهم لغزارة العدد ولم أتعرَّف على أيٍّ منهم.

أخذت أتجول في المكان وساقني فضولي لأن أستطلع معالمه فعاودت إلى منبع الماء لألقي نظرة عليه وأستجلي سبب تقيئي منه ليلة الأمس، فكانت الصدمة حين ألفيته طافحاً بالجثث والدماء والأوساخ الملقاة فيه.. الأمر الذي جعلني أشعر بالغثيان مرة أخرى

وراودني شعور بالعجب لكوني مع كل جرى من مآسٍ لازلت على قيد الحياة في تلك المجزرة التي سحقت جموعاً من البشر!

كيف نجوت ولم تطلني يد الموت حينها، كيف تمكنت من الإفلات من قبضته التي لم ينجُ منها أحد! وإلى الآن تنتابني الدهشة كلما تذكرت مجريات وأحداث ذلك الماضي الأسود.

ابتعدت عن المكان ومشيت قليلاً إلى أن وصلت إلى مكان ذي تربة ناعمة ملساء تحت قدمي، وقفت للحظات أتأملها بصمت يحمل ضجيج الكون الصاخب بأكمله وأخبرتني بأنها كانت شاهداً على كل ما جرى لكنها لم تستطع فعل أي شيء سوى احتضان أجساد القتلى الأبرياء بألمٍ، ثم استلقيت على الأرض ونظرت إلى السماء...

لا زلت أتذكر جيداً أنني من خلال السماء استجديت الله بطلب قلت له: يا الله خذ روحي فيرقد جسدي أيضاً على هذه التربة بسلام... ثم استسلمت إلى نوم مريح استغرقت فيه وفي الوقت ذاته هربت من خوف كان يلاحقني بشكل مستمر ويزداد في داخلي مع توالي الأيام.

وعند بزوغ صباح جديد استيقظت على منبه حرارة أشعة الشمس التي جعلت جسدي حاراً طرياً كالقطن، في تلك اللحظة تذكرت أن شعبنا الأرمني كان يقول إن الأرمن القدماء كانوا يعبدون الشمس "عباد الشمس" لقد كانوا على مستوى عالٍ من الوعي والتفكَّر في الكون وبالقوة التي تمتلكها الشمس، لقد منحتْ خيوط الشمس في ذلك اليوم جسدي قوة كبيرة.

ثم داهمني شعور مريع بالوحدة والغربة وانهمرت الدموع من عيني كأمطار ينبوع ربيعية، ومضى تفكيري إلى عالم لاشعوري وفضاءات من خيالاتي وهواجسي وألقاني في بيت أسرتي الدافئ، إنهم هناك بعيدون وعلى مقربة من القلب والذاكرة، الحقيقة أنهم بعيدون جداً..

رأيت أبي وأمي وأخوتي وأخواتي وأقاربي وأهالي القرية وشعرت للحظة بحلاوة تلك الحياة التي انصرمت وأصبحت ضرباً من ذكريات أليمة، وحين طفوت على سطح الوعي تحولت اللحظة إلى علقم يوقظني من حلم عذب ويخبرني بأنه لم يتبقَّ أحد منهم يتنفس هواء الحياة، فانهال وابل من الدمع يتدفق من عيني دون أن يكون معي أخ أوصديق أو رفيق يكفكف حزني ويهدهد وجعي النازف أو يمنحني شعوراً بالاطمئنان.

لقد كنت وحيداً حدَّ الفراغ صاخباً حدَّ صراع ومعمعة حرب تجول وتصول في داخلي، وخائفاً انتظر تلك اللحظة التي سيلقي العثمانيون القبض علي ويقتلونني، كنت أسائل نفسي إلى أين سأذهب الآن؟ وأية وجهة عليَّ أن أتخذ وقد بتُّ مشرداً لا بيت أو ملجأ ولا حتى حيوان أو دجاجة أو قطة مؤنسة في القرية وقد أصبح الخوف والجوع والعطش ظلي، كيف سأعيش وبمَ ومع من؟ لقد تملكتني الحيرة في كل شيء بلا منفذ خلاص.

ومرة أخرى رفعت يدي نحو السماء وقلت: يا الله لمَ أبقيتني في هذه الحياة المريرة التي لا يفارقني فيها الألم والعذاب، وبينما أشتكي ألمي إلى ربي لمحت عيناي شيئاً بدا لي قمحاً، اقتربت منه وإذ به سنابل من القمح القاسي (فريك) فجئت بتلك السنابل وقمت بفركها ولم تكن بحوزتي أية أوانٍ لأضع تلك الحبات فيها، لكني عثرت على ورقة عريضة من إحدى الأعشاب وبعض الماء، ثم قمت بوضع الحبات فيها مع الماء فأصبحت طرية بحيث يمكنني تناولها وكنت أقطف عشبة الخرنوب وآكلها فتُسكِت جوعي.

لقد اختفى المجتمع الإنساني الذي كنت أعيش فيه في ألفة وود مع الأهل والجيران والأصدقاء، وبين ليلة

وضحاها وجدت نفسي في مجتمع بديل تسوده الحيوانات البرية من الذئاب والثعالب والدببة والأفاعي والفئران والجرذان، ولعدة أيام كان عليَّ أن أتكيف وأتأقلم مع العيش مع تلك الكائنات الحية هناك مع صقيع وحدتي ووحشتي.

كنت أسند رأسي على الصخر الصلد البارد وأستلقي على الأرض لأغفو وأستغرق بالنوم برغم تلك الحشرات والديدان التي امتلأت بها الأرض وكانت تقرصني أو تعضني، ومكثت على هذا الحال من العذاب فترة تتراوح بين الثلاثة والأربعة أشهر كانت كفيلة بتغيير ملامحي البشرية وأنا أعيش بين الضواري والقوارض. في الحقيقة أستطيع القول إن ملامح البشر قد اختفت في وجهي وكياني بل فارقتني ولا أعلم متى تعود إليَّ.

ومع قدوم فصل الخريف سمعت أن هنالك القليل من الأرمن لا يزالون على قيد الحياة إلا أنهم تأسلموا وانخرطوا في الدين الإسلامي، فتبادر إلى ذهني أن أذهب إليهم ووقعت في حيرة من أمرين كلاهما سيئ، فإن مضيت إلى هؤلاء الأرمن في النهار ستمسك بي العيون المتربصة وإن فعلت ذلك ليلاً ستهاجمني الكلاب.

في الحقيقة تساوى عندي أمران، كنت أشعر بأني ميت وفي ذاته كنت حياً فالموت والحياة كانا عندي سيان، أتخبط في دوامة من التفكير المضني ويجتاح داخلي صراع بين قلبي وعقلي والحوار بينهما يشتد ويبلغ أعلى مدياته.

كنت أتأمل كل شيء أحلل مجريات الأمر وأستنتج ما يمكن أن يفضي إليه من العواقب، أقضي وقتاً طويلاً بالتفكير بنتيجة كل خطوة سأقدم عليها إلى حدِّ الأرق الليلي والضغط النفسي طوال النهار الذي يفوق احتمالي، لكني أخيراً حسمت الأمر وقررت المُضي إليهم ثم خلدت إلى النوم بصحبة جوعي وعطشي.

في هذه الليلة رأيت حلماً أن مرضاً أصاب جسدي وهدَّ قواي وطاقاتي بحيث لم أعد أستطيع الحركة، وبدا لي وكأنما أحدهم يدفعني بقوة إلى أن وصلت حافة مياه كبيرة، ثم هممت برمي نفسي من ذلك المنحدر إلى المياه لأتخلص من هذه الحياة التي أعيشها بينما هي مرادفة للموت المتأرجح بي، وفجأة رأيت أحدهم يمسك بيدي وقال لي:

- هل جننت! لم ينتهِ عمرك بعد، ستبقى طويلاً تعيش في هذه الحياة، وكان هنالك شخص آخر يقبع خلفي

وكأنما تبدى لي "إبليس" يقول له: دعه، دعه يرمي بنفسه في الماء، ودخل الاثنان في نقاش تحول إلى جدال احتدَّ واشتد بينهما، ثم نزل رجل من السماء إلى الأرض كأنه ملاك من الملائكة وكان يلبس ثياباً بيضاء وأمسك بخناق ذلك الإبليس وقال له: انظر سأفقأ عينيك، من وهب الروح لهذا الإنسان هو من سيقوم بتخليصه أيضاً، ثم اختفى إبليس والملاك أيضاً...

حين استيقظت من النوم كنت غارقاً بالعرق وكنت أفكر وأتساءل في نفسي: هل تُراني سأعيش كثيراً؟ إن ذلك رهن إرادة الله..

ثم قررت الذهاب إلى (سامسون) المدينة المعروفة في ذلك الوقت بأنها المعقل الرئيسي لحزب الطاشناق الأرمني والذين كانوا يعرفون بـ الفدائيين، قلت في نفسي: عساي أجد هناك بعض الأرمن فالتقي بهم ومن الممكن أن يكونوا قد نزلوا من الجبال واستقروا فيها، ثم شرعت بالسير إلى هناك استغرقت يومين في المشي أجوب المسافات وأقطع البراري حتى وصلت مدينة سامسون.

حين وصلتها صفعتني خيبة أمل أخرى لقد كانت خاوية من البشر ومن كل شيء حتى البيوت كانت مدمرة ومنهوبة والأديرة محروقة، لقد تم حرق جميع كتبنا

المقدسة وكانت أوراقها متناثرة ومنتشرة في كل مكان، كانت سامسون بكل ما فيها من جمال طبيعتها وترابها وأشجارها واخضرارها تعيش الحزن والعزاء، لقد حدثتني معالمها الشاحبة عن شبح الموت الذي اجتاح أرجاءها وعن مقصلته التي اغتالت أرواح الأبرياء بلا رحمة..

لقد اعتصر المشهد قلبي واحترقت جوارحي لما رأته عيناي وقلت: رباه لم لا تقبض روحي؟ يا الله كم هي عظيمة ذنوبنا حتى دفعنا ثمنها هذه الدماء كلها.. رفعت يدي إلى السماء وقلت: أين القديسين المقدسين، لماذا لا يأتون ويخلصوننا من الظلم، أين أضحى مقاتلونا الأرمن! لمَ لمْ يأتوا لإغاثتنا ونجدتنا حين ألمت بنا تلك الكارثة؟! إلى أين وصل بنا الحال ياالله!!

ثم فكرت في نفسي ينبغي عليَّ أن أتجه إلى سهل "موش" فأرى ما حل بأهله الأرمن لقد كانت تلك المنطقة تعجُّ بالأرمن، واصلت السير مجدداً ورأيت فرأيت شخصين يتحدثان معاً واختبأت في جهة على الطريق خشية أن يراني أحد، فسمعت حديثهما إذ قال أحدهما للآخر:

- انظر إلى تلك القرى جميعها لقد كانت للأرمن وقام جنود الدولة العثمانية بحرقها جميعاً وإبادة أهلها واقتياد ساكنيها من الأرمن ممكن كانوا يقطنون سهل "موش" وقتلهم جميعاً فرد عليه الآخر:

- ليذهبوا إلى الجحيم الموت لهم، فجميعهم كفار، عظامهم ليست نظيفة ليسوا مسلمين.

- ماذا تقول يا رجل؟! وهل كانوا فيما سبق أعداءً لنا؟

لقد كان الحديث يدور بينهما حول سلبيات وإيجابيات قتل الأرمن المساكين، ومن خلال ما سمعته بينهما تيقنت من أن ذهابي إلى "موش" سيكون بلا جدوى وأدركت أنه لم يعد هنالك أي أرمني في هذا المكان الممتد والذي كان مشغولاً بهم فيما مضى.

ازداد يأسي ومرة أخرى يُغلق الباب الذي علقتُ عليه بعض الأمل تمنيت لوكنت طائراً فأطير أو حتى فأراً فأختبئ في جحر في بطن الأرض، مع ذلك فإن هذين الرجلين قد أفاداني بشيء وهو عدم جدوى المضي إلى سهل موش والعودة إلى جبال سامسون.

كانت الأيام في ذلك الوقت تشارف على الخريف والبرودة تظهر على جو المنطقة وبقائي في هذه البراري سيكون سيئاً مهدداً بالمتاعب ولا أعي إلى أين عليّ

الذهاب وإلى من أو كيف سأقضي أيامي المقبلة وبرفقة من والمكان خاوٍ من كل شيء إلا من وحدتي وحسرتي وعجزي. ليتني ألقى حتفي على إثر ضربة حجر من أحدهم تطال رأسي وتقرِّب أجلي فأتخلص مما أنا فيه من توتر دائم وخوف من آتٍ لا تُدرك محمولاته.

أتساءل فيما إن كنت مذنباً في دماء الأرمن المسفوكة، أو كنتُ مُختاراً لإحياء الشعب الأرمني المُباد بمفردي! هل إحياء الأرمن وزيادة الكثافة السكانية لهذا الشعب متوقفة على بقائي واستمراري في هذه الحياة؟

ألذلك أعمى الله عيون هؤلاء المجرمين الترك عني؟! ليتهم لمحوني فألقوا القبض عليّ وأنهوا حياتي مع هؤلاء الأبرياء.

أعتقد أني بقيت حياً فقط ليكون ذلك أعجوبة تُضاف إلى عجائب الدنيا السبع، لمَ خلقنا الله شعب أرمن؟ ليته أوجدنا على هذه الأرض يهوداً ولمْ يكن اسمي ديكران وإنما حسين أو حسو، وارد أنهم أخطؤوا حين كتبوا اسمي، من الواضح أنني منبوذ مرفوض من قبل هذي الحياة الدنيا وتلك الآخرة فكلاهما لم ترحب بي أو تستقبلني، بِتُّ أمقت روحي ولا أريدها، يؤلمني أنني

لست حياً ولست ميتاً، أجدني أتحدث طويلاً مع نفسي كالمجانين وأذرف الدموع الحارقة.

ثم أتذكر جيراننا المسلمين وذلك المسلم الذي كان دائم التردد إلى منزل ذلك الشيخ الذي كان قد فتح في بيته مكاناً أسماه "فقير خانة - مأوى الفقراء" وكان قد خصصه لاستقبال الفقراء والمحتاجين واستضافتهم وتلبية حاجاتهم ومساعدتهم.

عندها قررت التوجه إليه وقبل ذلك قررت أن أدخل في دين الإسلام ومن ثمَّ أغير اسمي إلى علي أوعلو ورسوت على هذا القرار كخطوة أولى دون خوف، فشخص مثلي فقد أهله وأبناء ملَّته ومر بما مر من مخاطر وأرته الحياة ما أرته من قبحها يجب ألا يعرف الخوف، فيما بعد عزمت على أمري ومضيت نحوه.

في ذلك الخريف كان الروس قد دخلوا إلى حدود مناطق قرس وبازيد والمناطق الأخرى من سرحد، وكان هنالك لاجئون يفرون من تلك المناطق ويقصدون منطقتنا، فدخلت بين تلك الجموع الفارة ومشيت معها وفي طريقي إلى مسكن الشيخ صادفت رجلاً فسألته باللغة الكردية:

- من فضلك أين يكون منزل الشيخ؟

فسألني أحدهم:

- من أنتَ ومن أين أتيت؟

- أنا لاجئ حالي كحالكم.

- ما اسمك؟

تمتمتُ في نفسي يالله ما هذا البلاء!.. وأجبته:

- اسمي علي سليمان.

- ولماذا أنت وحيد؟

- أولئك الكفار عبدةُ النار احتلوا أرضنا فلذنا بالفرار شأننا شأنكم.

ثم تقدم شخص آخر من بعيد رمقني بنظراته وقال:

- والله إنك أرمني!

- يا رجل وهل الأرمن يستطيعون التحدث باللغة الكردية بهذي الطلاقة؟! ناهيك عن ذلك هل بقي هنالك أرمني على وجه هذه الأرض بعد المجزرة الأخيرة؟!

واصلت محادثته بهذه اللغة الطليقة الواثقة حتى وصلنا مشارف القرية ثم تخلصت منهم وتركتهم حيث استقروا في مكان يناسبهم ونصبوا خيامهم ومضيت بحال سبيلي بين بيوت القرية وأخذت أتجول فيها باحثاً عن مكان أستطيع أن أمكث فيه بعض الوقت، فتوقفت عند امرأة تقف عند باب بيتها وسألتها:

- أختاه هل بإمكاني أن أجد مكاناً أنام فيه وأستريح؟

- والله زوجي غير موجود في البيت ولا أستطيع إيواءك هنا، للأسف أمثالك كثر كانوا قد التجؤوا إلينا وباتوا في بيتنا وأكرمناهم وقدمنا لهم الطعام والشراب ومن ثمَّ خانوا الإكرام بسرقة أشيائنا ومن ثمَّ غادروا.

ومن خلال سيري في القرية وسؤالي وردودهم بالإجماع أدركت أنهم تعرضوا حقيقة للشيء الذي تحدثت عنه تلك المرأة من سرقة ممتلكات من قاموا باستضافتهم من المشردين.

ثم عدت إلى بيت تلك المرأة التي حدثتني في البداية خائباً وآملاً بلقاء زوجها علَّه يجد حلاً لوضعي وكان قد عاد إلى منزله عندما التقيت به قالت زوجته:

- إنه الرجل ذاته الذي طردته اليوم من المنزل.

بدا هذا الرجل على مستوى من الوعي والنباهة نظر إليَّ متمعناً في عينيَّ وملامحي، نظراته منحتني شيئاً من الاطمئنان ورحب بي ثم قال:

- أنا مستعد لإيوائه في بيتي بسعة صدر وليسرق ما يشاء.

أدركت حينها أنه عرف وضعي ومعاناتي، بل عرفني تماماً، وانتظرت أن يفصح عما في داخل تفكيره إزائي.

لكن الزوجة اعترضت على كلام زوجها وقاطعته:

- كيف تقوم باستضافته هنا وأنت لا تعرف أي شيء عنه وقد فعلت ذلك سابقاً مع الكثيرين ورأيت نتيجة تصرفك ذاك.

فسمعته يهمس لها بصوت خافت:

- يا امرأة إنه أرمني وملامح الأرمن جلية في وجهه وهيئته.

اصطحبني إلى داخل المنزل وأدخلني غرفة وجلسنا على انفراد بعيداً عن مسمع زوجته وسألني:

- أيها الولد عليك أن تخبرني بصدق حقيقة أمرك هل أنت مسلم أم أرمني؟

مع الخوف المتردد عليّ قلت:

- أنا مسلم.

- يا بني تمنيت لوكنت أرمنياً، فقد اعتدنا على قدوم اللاجئين المسلمين وعرفناهم واضطررنا من باب الواجب ومد يد العون إلى المحتاج لاستقبالهم في منازلنا، إلا أنهم كانوا يقابلون عرفاننا بالخذلان والسرقة، يحلون في ديارنا فنفتح لهم أبواب بيوتنا يمكثون لفترة ونهتم بهم ونلبي احتياجاتهم ثم ينصرفون حاملين معهم أغراضنا وأشياءنا ويختفون من الأمكنة، أما الأرمن فقد

كانوا بخلافهم يترفعون عن الإقدام على هكذا تصرفات لا أخلاقية إنهم على قدر عالٍ ورفيعٍ من النزاهة ورقي الأخلاق والنقاء.

من المؤلم أن الأرمن هم الشعب المظلوم الذي حلَّ به مالا يستحق من جرائم القتل على أيدي الظُّلام والسفَّاحين.. ليتولاهم الله بقصاصه العادل ولينتقم لهم جزَّاء ما ارتكبوه من إبادة مروعة بحق هذا الشعب المسالم ولتكن على ثقة بأني لم أؤذِ يوماً أو أسرق أو أهدر دم أحد من الأرمن.

كنت أتمتم في داخلي: برغم كل ما تقوله... إلا أنني لا زلت أشعر بالتوجس والخوف منك..!

ثم نادى الرجل زوجته طالباً منها تحضير الطعام وتقديمه فأتت بالبرغل الشهي الذي ما إن دخلت رائحته الزاكية أنفي حتى أقدمت على التهامه بطريقة شرهة، ولدهشتي بحثت عن الملعقة بشكل جنوني ولم أرها فأمسك الرجل بها وناولني إياها وأدرك مدى جوعي وانقطاعي عن الطعام لمدة طويلة من خلال لهفتي وإقبالي على المنسف.

كنت أملأ الملعقة بالبرغل وأضعها في فمي فلا أستطيع ابتلاع الطعام الذي فيها والذي لا يجتاز حلقي فقال لي:

- يا ولدي لا تخجل كُلْ يبدو أنك لم تأكل منذ مدة طويلة طعاماً مطبوخاً، إنك لا تتمكن من تناول الطعام الحارَّ بشكل طبيعي.

- نعم لم أتناول الطعام منذ خمسة أشهر وأنا قادم إلى هنا بعد مسيرٍ شاقٍّ في البراري دام يومين.

نظر الرجل إليَّ وشعور الشفقة والعطف بادٍ على قسمات وجهه وقال:

بما أنك منقطع عن الطعام طوال هذه المدة وآتٍ من سفر طويل كُلْ بتأنٍ وهدوء، لا تستعجل ولا تزد بالوجبة فوق احتمال معدتك لئلا يكون لذلك تداعياته السلبية على جسمك.

بعد أن انتهيت من تناول طعامي عاد الرجل إلى محادثتي وسؤالي:

- يا ولدي أتمنى أن تخبرني بكل ما يتعلق بك وما حلَّ بك ومن أين قدمت وإلى أين طريقك الآن متجه.

بدأ شعور الخوف عندي يتضاءل تدريجياً مع شعوري بالرحمة والشفقة التي بدت على مُحيَّا هذا الرجل الكردي الذي بدَّد مخاوفي وتوجُّساتي فقلت له:

- عمَّاه أدام الله بيتك عامراً بالخير لأنك استقبلتني وأكرمتني ولم تتركني مشرداً في الخارج والعراء.

- ضحك الرجل وبابتسامة أبوية ودودة قال:

- حدثني عن أي شيء يخصك عن نفسك عما أصابك واعترض طريقك.

لقد شعر بأن خلف لجوئي إليه قصة وجع عميقة ولذلك ألحّ على مصارحتي له بالتفاصيل التي تدور حول وجودي في هذا المكان، شعرت للحظة بغصة حارقة تُدمي حلقي وفي الوقت ذاته راودني الخوف من الإفصاح عن نفسي وما جرى معي وعن خلفية تشردي..

أطبق على صدري جبل من شعور الألم والرعب حين تراءت إلي صورة الجنود العثمانيين الذي قتلوا أهلي أبي وأمي وإخوتي وأخواتي والأقارب والخلان وأهالي القرية جميعاً، لم أستطع أن أنبس بحرف فما كان أمامي من مخرج سوى أن قابلت أسئلته وتساؤلاته باستفهام:

- يا عمّ بما أنك أكبر مني سناً وأكثر تجارب مع الحياة لمَ لا تحدثني عن أي شيء من خلاصاتها؟

أسند الرجل ظهره إلى حائط الغرفة ونظر إليَّ وقال والحسرة تلتهم وجدانه:

- يا بنيَّ فيما مضى كان هنالك ملك وكان هذا الملك قد وضع قانوناً اسمه قانون الصدق والاستقامة، وكان قد وضع عموداً أمام باب قصره وعلق عليه جرساً كبيراً، وكان يتوجب على كل من لديه شكوى أن يأتي القصر ويدق ذلك الجرس وكان هنالك رجل يملك حماراً.

وحدث أن قام هذا الرجل بطرد حماره من البيت فاستاء الحمار من موقف صاحبه وشعر بالحزن، وبعد أيام قرر أن يقصد قصر الملك ويفرك ظهره بالعمود فاهتز العمود وأطلق الجرس صوتاً، فسمع الملك صوت رنينه وأوعز إلى خدمه بالذهاب والنظر في أمر الصوت والشكوى التي تكمن خلف قرع الجرس فاستجابوا لأمره، وحين وقفوا عند العمود رأوا الحمار مستمراً بقرع الجرس فما كان منهم إلا أن ضربوه وأبعدوه عن المكان، ثم أخبروا الملك بالأمر ومرة أخرى يعاود الحمار ويكرر فعله بفرك ظهره بالعمود وإصدار الصوت عندئذ أمر الملك بجلب الحمار إليه واستحضار صاحبه قال:

- اذهبوا في الحال وائتوني بصاحب هذا الحمار.

قالوا:

- لا صاحب له إنه هنا بمفرده.

- ابحثوا عن صاحبه أريده هنا في الحال.

سارع الجنود وخدم الملك إلى البحث عن صاحب الحمار وتمكنوا من الإتيان به إلى قصر الملك فسأل الملك صاحبه:

- هل هذا حمارك؟

أجاب الرجل:

- نعم يا مولاي إنه حماري.

- كم سنة صار لهذا الحمار في خدمتك والعمل لأجل احتياجاتك؟

- لقد خدمني اثنتي عشرة سنة.

- وهل كنت على علم بأمر الجرس لديَّ في القصر؟

- نعم يا مولاي أعلم.

- حسناً ما دمت على علم بذلك فهذا يعني أنك يجب أن تعلم أيضاً أن الشكوى حق ومتاحة لكل من يقع عليه الظلم، ما يتوجب عليك الآن أخذه إلى بيتك ورعايته وتقديم الأكل وجميع احتياجاته ريثما يموت فقط حينها تستطيع إخراجه من بيتك.

واسترسل الرجل الكردي بكلامه:

- يا ولدي قديماً كانت هناك قيم إنسانية تتمثل بإعلاء الحق والصدق والاستقامة والعدل يؤمن بها العالم، لكن الأمر في أيامنا هذه بخلاف الزمن الماضي كما ترى العثمانيون أصدروا أمرهم بحرمان الأرمن حياتهم وإفنائهم وإبادتهم وهذا ذنب عظيم وقرار جائر بحق الإنسانية لن ينفذوا من دائرة عقابه.. ثم توجه بحديث إلى زوجته وقال:

- فاطمة ضعي الحليب على النار لكي يشرب هذا الولد الحليب الساخن فهو لم يتناول منذ مدة الطعام الكافي.

سارعت زوجته إلى تسخين الحليب وأحضرته وقام الرجل بتقطيع الخبز ووضعه في الحليب ثم قال لي:

- يا ولدي عليك الآن بتناول الحليب مع الخبز رويداً رويداً.

عندما شربت الحليب شعرت بأنه يذهب بكل راحة إلى معدتي، وشعرت بتحسن واضح بتناوله وبعد أن انتهيت من شربه قال لي:

- والآن قم لتخلد إلى النوم، أنت بحاجة للكثير من الراحة.

وبالفعل كنت راغباً بالذهاب للنوم والاسترخاء، لقد غفوت بسهولة واستيقظت في الليل وتحركت بمرونة، لقد أصبح جسدي ناعماً وطرياً كالقطن ووضعي في تحسن واضح خلاف الأمس عندها أدركت مفعول الحليب الكبير في الجسم إنه دواء ومصدر قوة ونشاط.

كان انطباعي في ذلك الرجل أنه بمنتهى الطيبة والرحمة والعطف، وإلى جانب ذلك إنه يمتلك خبرة طبيب فقد اهتم بي وقدم لي ما أفادني وجعلني أتحسن بشكل سريع، لقد خرجت من دوامة الخوف والرعب التي كنت فيها وهممت بالصلاة إلى الله حمداً وشكراً لما آل إليه حالي وخلدت إلى النوم مرة أخرى.

وفي التالي في الصباح الباكر جاءت المرأة لتتفقد حالي فيما إن كنت لازلت عندهم في البيت أو هربت، فوجدتني أشرع بالصلاة عند أول الفجر، ومضت إلى زوجها بسرعة لتخبره ما رأت فمشيت خلفها لأتنصت بهدوء إلى ما سيتحدثان به عني وسمعتها تقول لزوجها:

- إن هذا الولد كالملائكة لقد أخرج الصليب إلى وجهه وكان يصلي، الآن تيقنت من أنه ذو روح مختارة فلولا نقاء وقلبه وصفاء روحه لقبض الله روحه في الأحداث الدامية ولم ينفذ.

ردَّ عليها الزوج:

- ألم أقل لكِ البارحة إنه هذا الولد أرمني الأصل لكنكِ لم تصدقيني، حتى أنني من طريقة تناوله الطعام أدركت جوعه وانقطاعه الطويل عن الطعام وتضاؤل النور في عينه، لقد كان الحليب الدواء الشافي المعافي له ولولا أنه شربه البارحة لمات.

ثم خرجت المرأة من الغرفة ونادتني:

- تعال يا ولدي واجلس في الغرفة، فاستجبت لدعوتها وجلست معهما في الغرفة فسألني الزوج:

- يا بني أرجوك أريدك أن تخبرني أمسلمٌ أنت أم أرمني؟ عليك أن تؤكد لي الأمر وتصدقني القول والأمر سيان لدي أياً كنتَ لكني أصرُّ على معرفة حقيقة أمرك.

- فكرت في الإجابة عن سؤاله وقلَّبت الأمر على وجوهه المختلفة لأخرج برد وأقتنع بما أجيب ثم قلت:

- ألست تريد الحقيقة؟ حسناً سأخبرك بأني أرمني، انظر إلى جسدي الضعيف والهزيل مع روحي القوية الأمر الذي جعلني أبقى حياً حتى الآن، وتحسباً ومن باب الحذر كنت قد أشعتُ في أمكنة عديدة كوني مسلماً بدافع الخوف على نفسي.

- هذا جيد لقد عرفناك ووضعك بم تريد أن تخبرنا الآن؟

- لقد صليت ودعوت ربي أن يجعل بيتك عامراً بالخير والأمان وأن يحفظ عائلتك وأولادك ويحميكم من كل ضرٍ، فمعروفك عندي كبير قد أويتني وأطعمتني واعتنيت بي والتمست العلاج لحالتي الصحية التي كانت على شفا الهاوية ثم التفتُّ إليه وقلت له:

- من الممكن أن تكون ملاكاً.

- يا بني ما قمت به إنما صدر عني كإنسان فحسب، من الطبيعي أن تدفعنا الإنسانية في دواخلنا إلى فعل هكذا أشياء، لقد جاءنا الكثيرون من هؤلاء اللاجئين والمشردين واستقبلتهم بحفاوة وقدمت لهم الطعام والشراب وفي النهاية غادروا منزلنا ورحلوا بعيداً محملين بأغراضنا التي سرقوها واختفوا عن الأنظار، حتى أنني أتمنى أن تبقى عندنا في بيتنا فتهتم في بعض الأوقات بأولادي الصغار.

راق لي الاقتراح والعرض، وقلت في نفسي بما أن جسدي قد استعاد نشاطه وقوته وأستطيع تأمين لقمة عيشي فلا مانع من بقائي ولا حرج من وجودي مع هذه

الأسرة ما دمت قادراً على العمل والإفادة والاستفادة ثم قررت البقاء وقلت له:

- يسرني البقاء معكم لمدة خمسة عشر يوماً وأنا مستعد للقيام بجميع الأعمال المترتبة عليَّ.

وفي أحد الأيام سمعت أن جنود العثمانيين قد دخلوا القرية وأخذوا يبحثون عن الأرمن وكان العثمانيون في ذلك الوقت قد أصدروا القرار القائل بأن: كل من يقوم بإيواء الأرمنيين عنده سيتم القبض عليه كمتواطئ ضد الدولة العثمانية.

وبعد ذلك سمعت من أهالي القرية أن كل صاحب بيت عثر في بيته على أحد الأرمن اللاجئين إليه عليه أن يسلمهم للجنود العثمانيين.

في تلك الأيام دخل صاحب البيت الذي احتواني رأيت في ملامح وجهه تغيراً ملحوظاً، بدت عليه علامات القلق والتوتر والحزن والإحباط أيضاً، تأملته ملياً بدا وكأن مرضاً عظيماً قد تمكَّن منه وأن الهم قد أثقل كاهله وطفح وجهه به، سألته زوجته:

- ما بك يا رجل؟! ماذا اعتراك وجعل قسمات وجهك تشحب؟ لمَ غابت شمس ابتسامتك وانشراحك؟

- آاااه يا زوجتي لك أن تصدقيني أولا، التفكير في هذا الولد ينهش رأسي بحدّة، لقد داهم الجنود العثمانيون القرية وهم الآن يدأبون في البحث عن كل أرمني ليلقوا القبض عليه، والخوف والقلق يحاصراني بشأن هذا الولد ولا أستطيع التفريط به ولن أسلمهم إياه مهما كلفني الأمر، وفي الوقت ذاته أخشى عليه من مهاوي المصير في بقائه هنا. التفتُّ إليه وقلت:

- دعني أذهب يا عمّ وأهرب من هنا لئلا أتسبب في تعريضك وعائلتك لمخاطر أنت بغنى عنها.

نظر إلي نظرة فاغرة بالألم والرحمة وقال بصوت طافح بالحنان الأبوي:

- إلى أين ستذهب يا ولدي إلى أين ستمضي والدروب كلها مزروعة بذئاب العثمانيين؟!

- يا عمّ سمعت أن شيخاً يقطن قرية "دودريا" قد أتمكن من الوصول إليه والالتجاء إليه.

نظرت إليَّ زوجته نظرة مغلفة بالحزن والدهشة وعيناها تغصُّ بالدموع وقالت:

- انظر كيف تذكر هذا الولد وخطر في باله أن يبادر إلى ذلك! ثم قالت لي:

- يا ولدي لولا الحكومة المسيطرة على المنطقة لما تخلينا عنك ولما تركناك تفكر بالخروج من بيتنا، ولرعيناك واحتضناك برحابة قلب ولكنت فرداً منا شأنك شأن أولادنا، لكن هذا القرار المستجد الذي أصدرته الدولة الحاكمة أقوى من قدراتنا وآمالنا ولا نقوى على مجابهته أو مقاومته وتجاوزه، ثم وضعت يديها خلف ظهرها واتجهت نحو خزنة وأخرجت من صندوق خشبي شيئاً ما وأعطتني إياه ثم قامت بالمسح على رأسي بيديها وقالت:

- يا ولدي لك مني هذه الهدية خذها وضعها في عنقك ستحصنك برعاية الله وتحرسك بعينه التي لن تغفل عنك، ستبعد عنك كل سوء وكل شخص يضمر لك المكروه والشرَّ.

لقد كتب على الهدية التي أهدتني إياها: (بسم الله الرحمن الرحيم ورب العالمين).

في تلك الليلة نمت والخوف يتملكني والقلق من القادم يزعزع أركاني واستقراري الذي لم يطل أو يستمر في هذا البيت الآمن بأصحابه، حتى أنني حين قدموا لي طعام العشاء لم أستطع تناوله واستبد بي التفكير الشائك

بالحيرة والعجز والخوف من القادم وسلمني لأرق دام حتى الصباح.

شعرت بأني أمضي بلا روح وأنه لم يعد لي سوى هذا جسدي المنهك الذي أمضي به والذي تترقبه العيون وتتحيَّن اللحظة لإلقاء القبض عليه وسحقه، وفي الوقت ذاته كنت أشعر بأن ذلك لن يحدث، لقد راودني هذا اليقين على صورة إلهام وحدس.

عند أولى بواكير أشعة الشمس هممت بالمغادرة أمسكت بالبراري طريقاً يأخذني إلى اللا معلوم والمطر ينهمر من السماء مصحوباً برياح قوية، لقد ابتلت ثيابي وجسدي بالكامل وكنت أردد في نفسي: لا تلزمني حياة كهذه الموت خير علاج لها، ثم توقف المطر قليلاً بينما الرياح كانت تعصف بكل شيء وتطيح بي على مدار سيري حتى ركنت إلى مكان آخر المساء وقضيت فيه تلك الليلة الموحشة الخالية من أي شيء إلا من خوفي.

في الصباح حين استيقظت كان صبري قد نفذ وقررت أن أغير هيئتي كفاني تفكيراً متعقلاً، سألتمس هيئة المجانين في هذه القرية التي شارفت عليها وحين أبدو مجنوناً قد يبرر ذلك ابتلالي الكامل بالماء، لكن من الممكن أيضاً أن يثير مظهري الشكوك في أمري ويُفسَّر

ذلك بأني أرمني فارٌّ من أيدي العثمانيين، سلمت أمري لله ودخلت القرية وبادرت إلى طرق أحد أبوابها بقوة، فخرج لي رجل البيت وصاح بغضب:

- من أنت؟ ولمَ تطرق بابنا بهذه القوة؟!

- سارِعْ إلى إشعال النار لي لأتدفأَ فإني أشعرُ بالبرد الشديد.

كان في البيت ثلاثة أشخاص كانوا يتمتمون فيما بينهم: من أين جاءنا هذا المجنون! يبدو أنه جاء من جموع هؤلاء اللاجئين القذرين، يبدو أنه مجنون، ثم رفعت نبرة صوتي بقوة وغضب وقلت:

- سأذهب إلى بيت الشيخ. فقال أحدهم:

- اذهب أيها المجنون فأنتم تأكلون قوتكم بهذه الأساليب. فرددت عليه بانزعاج كبير:

- عمَّ تتكلم أنت؟ لستُ بحاجة إلى طعامك فلدي الكثير من الخبز ومعي حجابي انظروا سأريه للشيخ فقال آخر بينهم:

- هذا جيد، لابأس أشعلوا النار ليتدفأ ولنرَ ما الذي سيخبرنا به، وكان وقت الطعام قد حان فقامت نساء المنزل بإحضاره ساخناً، فأخرجتُ أرغفة الخبز التي كانت معي ووضعتها على المائدة أمامي وقلت:

- أبعدوا خبزكم، فخبزي معي ثم أكلت حتى شبعت ووقفت على قدمي لمتابعة مسيري مرة أخرى إلى قرية الشيخ، قلت لهم مرة أخرى بصوت مرتفع:

- أنا ذاهب فقال أحدهم: تريث لا تذهب الآن، ابقَ هنا إلى أن تشعر بدفء جسدك جيداً وعندئذٍ اذهب فقلت له:

- لا أستطيع المكوث مطولاً فطريقي بعيد ويجب أن أذهب، ثم قال آخر مرة أخرى:

- دعوه، دعوه وشأنه وليذهب هذا الشاب المجنون.

واصلت السير وقطعت مسافة طويلة حتى رأيت في الطريق الجنود يقتادون رجلين مقيدين أمامهم، شعرت بالخوف وقلت في نفسي: إن هربت هذا شيء وإن لم أهرب فهذا شيء آخر وله اعتبار وتفسير آخر، ربما تنبغي عليّ مواصلة السير أمامهم بشكل طبيعي لئلا ألفت أنظارهم، مع شعور التوجس كان في داخلي شيء من القوة بحيث مضيت أمامهم بصورة طبيعية أقرب إلى الثبات حين رآني الجنود خاطبني أحدهم:

- من أنت؟ وإلى أين تذهب؟ فأجبته بصوت عالٍ:

- أنا ذاهب إلى بيت الشيخ. فرد الجندي علي:

- ويحك أيها الكاذب عن أي شيخ تتحدث؟ تبدو من هيئتك أرمنياً، فقلت له بلهجة تذمُّر:

- ماذا؟!! سيفقأ عينيك شيخي لأنك عديم الضمير والوجدان كيف تقول عن شخص مسلم أنه أرمني، انظر إلى هذه العلامة التي أعطاني إياها الشيخ فيما سبق، اقرأها وتأمل ما كُتب عليها، قرأ الجندي الكتابة ورأى أن اسم الله موجود فيها ثم أشار إلى رفيقه أنْ اتركوه ودعوه يمضي في حال سبيله وتوقفوا عن مضايقته.

تابعت المشي وابتعدت عنهم وقلت في نفسي: فعلاً في بعض الأحيان يكون في التظاهر بالجنون منجى وخلاص للمرء من مآزقه..

كنت أسير في طريق شديد الوعورة كثير الحفر ومن حين إلى آخر كنت أتعثر وأسقط فيها وبعد وقت لمحت عيناي قطيعاً من الأغنام مع الراعي فاقتربت منه وألقيت عليه تحية الإسلام:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته إلى أنت ذاهب؟

- إلى بيت الشيخ.

- وهل أضعت الطريق؟ بيت أي شيخ؟ ثم إنه كيف لك بمعرفة بيته أوله بمعرفتك وأنت بهذه الهيئة والمظهر؟

ثم أمسك بكتفي وقال:

- تعال معي لأدلك على الطريق انظر بهذا الاتجاه عليك أن تمشي لمدة ثلاث ساعات.

- ثلاث ساعات! أرجوك دعني أقضي هذه الليلة عندك إلى أين سأذهب في هذا الليل الدامس الظلمة؟

- لكني لا أعرفك ولستُ واثقاً منك وتبدو عليك هيئة اللصوص.

ثم أخرجت له العلامة وأريته الكتابة وقلت له:

- انظر إلى هذه العلامة وما كُتب فيها إني أقصد الشيخ لأجل علَّة أُعاني منها.

عندما نظر الراعي إلى تلك الكتابة قال:

- هذا صحيح إنها كتابة الشيخ، أمسك بالعلامة وقبَّل الكتابة وقال: جعلت فداءً لتلك اليد التي أعطتك هذه الكتابة، الآن أستطيع تصديقك لكن هذه الليلة سأصطحبك إلى الخيمة لن أذهب إلى القرية ستبيت عندي هذه الليلة هنا وفي الصباح تواصل طريقك.

لم يكن ما آكله سوى الخبز ولم الأمر مخجلاً بالنسبة لي ولم يأتني أحد بطعام فقلت له:

- لا طعام لدي سوى الخبز.

- حسناً بما أن الخبز موجود فالعشاء حليب وهو وفير هنا سنتدبر أمرنا به.

مضت تلك الليلة وأشرق صباح يوم جديد حيث غادرت الخيمة متجهاً إلى قرية الشيخ وحين وصلت واستفسرت عن مكانه أخبروني بوجود قريتين وثلاثة شيوخ وسألوني عن أيِّهم أسأل، تريثت قليلاً وقلت في نفسي: لقد انتهى دور الجنون الذي لعبته مع نهاية الظرف المتطلِّب له وعليَّ الآن أن أعود إلى التعقل، وفضلت أن أسأل من الرجال كبار السن فهم ذوو خبرة وتجربة أما الشباب فقد يضحكون مني. لمحت رجلاً ذا لحية واقتربت منه قلت:

- السلام عليكم.

ردَّ سلامي بحفاوة وحرارة:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

- أين يكون منزل الشيخ عبد القادر الكيلاني؟

أشار بيده إلى بيت الشيخ:

- انظر يا بني هناك إنه باب بيته.

سرت إلى الباب ورأيت جموعاً من الناس تخرج من بيته وأخرى تدخل ولم يسألني أحد عن نفسي من أكون أو ماذا أفعل، بدا المكان أشبه بدائرة حكومية الجميع منشغل بأموره الخاصة وأشغاله، ثم تذكرت شيئاً كنت أعرفه عنهم أنهم افتتحوا ما يسمى بـ (فقير خانة - ملجأ الفقراء) للاجئين ومن الممكن أن يكون هذا المكان هو ذاته "فقير خانة" الذي يرتاده الناس فقراء وأغنياء ويدخلونه ويأكلون الطعام ويخرجون بلا حرج.

لبثتُ عند الباب جالساً لثلاث ساعات كي أعرف ما يجري، كنت أريد معرفة وفهم ما يتكلمون عنه، كان هنالك بابان وفناء كبير لذلك المكان، كانوا يدخلون من باب ويخرجون من باب آخر وكان القصر مكوناً من طابقين، نهضت ووقفت على قدمي وأخذت أمشي جيئةً وذهاباً علني أعرف لماذا يدخلون من باب ويخرجون من آخر وفجأة أمسك شاب بكتفي وقال:

- هل تناولت الطعام؟

- لا والله لم آكل شيئاً.

ثم اصطحبني ذلك الشاب إلى صالون طويل ويقال له "ديوان خانة" أي مجلس للناس، كان الناس فيه جميعاً جالسين على الأرض يتناولون الطعام، جلست معهم

وتناولت الطعام حتى اكتفيت، وعاد الخوف مرة أخرى يراودني كنت أخشى أن ألفت انتباه أحدهم فيقوم بطرح وابل من الأسئلة المعتادة عليَّ من أنت؟ ومن أين قدمت؟ وعن أي شعب تنحدر؟ وإلى أي دين تنتمي؟ وما إلى ذلك من استفسارات...

لكن برغم أن الناس كانوا كثراً وكان المكان مزدحماً بهم إلا أنه لم يكن أحد ليهتم لأمر الآخر ولم أتعرض لأي سؤال كنت أخشاه، وتدريجياً بدأ الناس تتابعاً ينفضون من المضافة حتى فرغت منهم، وكنت قد رأيت باباً واحداً يدخل منه المتصوفون فقط.

مشيت إليه فرأيت في الداخل كرسياً كبيراً يتوسط الغرفة ويجلس عليه شخص قد غطى وجهه بقماش بحيث لا يستطيع أحد رؤية وجهه وكان إلى جانبه اثنان يقومان بتهويته، هؤلاء المتصوفون الذين كانوا يقفون حوله كانوا يقولون بصوت عالٍ مسموع: "حي الله، حي الله، قربان شيخ نور الله" ومن ثم كانوا يخفضون رؤوسهم نحو الأرض ويضربون صدورهم ويقولون مرة أخرى: "حي حي" وكانوا يرفعون أصواتهم بحيث أدخلوا الخوف إلى نفسي إنه فعلاً لأمر عجيب وأنا لم أخطئ الطريق حقيقة أنا قدمت إلى حيث المجانين..!

يا إلهي! كيف سأعيش بين هؤلاء.. ثم بادرت إلى سؤال أحدهم:

- من هو الشيخ الكبير بينهم هنا؟

فأشار إلى الشيخ وقال لي:

- إنه ذاك الشيخ عبد القادر الكيلاني.

ثم رأيت عدداً من المتصوفين يتجهون نحو الشيخ جاثيين على ركبهم لا مشياً على الأقدام ورؤوسهم مخفوضة نحو الأرض وأياديهم على صدورهم إلى أن وصلوا إلى الشيخ، ثم عادوا إلى مكانهم السابق وأخرجوا المسابح "جمع مسبحة تسابيح" وأخذوا ينادون:

- الله الله ومن ثم رفعوا ذلك القماش رويداً رويداً عن وجه الشيخ كانت لحيته طويلة وبيضاء كان يقول: الله الله حق محمد رسول الله وبينما كان يردد ذلك الكلام دخل عشرة دراويش متصوفون إلى الغرفة وهم يدقون على الدفوف ويقولون:

Emê bidin hedê resûl, ya reb tu bike qebûl

Emê di heşrê de nebin melûl, û nabin melûl li qiyametê

Em tevahî bi umetê bi hevre herin cinetê, cinet dûre li pey me tê

Şêxê min şêxê minfe`etê, ewê me bibe cinetê

وبعد ذلك رأيت فتيات متبرجات بملابس زاهية جميلة قد دخلن الغرفة وقُلنَ:

Tu ronî û nûranî ez bi qurban tu bi ruh û canî

Te kilîta cinetê anî, qurban bavê xedîcayê

Roja qiyametê li pêşîya me ye

جاء الليل حيث ذهب الجميع للنوم ولم يبق سواي وحيداً هناك بلا مأوى أو مكان ألتجئ إليه، كنت في حيرة من أمري إلى أين يمكنني أن أذهب.. ثم رأيت كبير الخدم قادماً نحوي وقال:

- أيها الولد اذهب إلى بيتك لتخلد إلى النوم، ماذا تفعل هنا حتى الآن؟

- لا مكان لي وأريد رؤية الشيخ.

- لِمَ لمْ تقل ذلك مسبقاً فالشيخ الآن نائم؟

سمع الشيخ صوتنا فتقدم نحونا وسأل رسول:

- رسول ماذا يجري؟ صوت من هذا؟

- جُعِلتُ فداءً لك يا شيخي إنه ولد جديد قدم إلينا اليوم ويطلب مقابلتك.

- دعه يأتيني.

مشيتُ إلى الشيخ واقتربت منه وقبَّلت يده ومددت عنقي أمامه وقلت له:

- هاك عنقي.. خذها إنها مقدمة لك، لكَ أن تقطعها أو تعتقها فالأمر يعود إليك.

- أيها الولد أنا لم أفهم مقصدك هل ارتكبت جرماً ما؟ هل قمت بخطف فتاة أو قتل رجل؟

- مولاي أنا لم أخطف أو أقتل أحداً كل ما في الأمر أنني وحيد بلا معيل، وصار لي خمسة أشهر أتخبط في البراري الموحشة والوديان الوعرة دون استقرار، أعيش الخوف والرعب يومياً أقضي شتائي وصيفي بلا مأوى وقد سمعت عن رحمتك ولطفك فجئت ألتمسك رأفتك وألتجئ إليك وأكون في حمايتك كل ما أحتاجه أن أكون في حصانتك.

نظر الشيخ إلي بوجه مبتسم منشرح ومسح بيده على رأسي ثم نادى رسول:

- رسول.

- لبيك يا شيخي تفضل.

فقال الشيخ بصوت مهيب ذي وقار:

- جد مكاناً لهذا الولد ريثما نعرف قصته في الصباح.

تقدم نحو الشيخ وقال:

- أين سأقوم بإيواء هذا الولد؟

- ألم يبقَ هنالك مكان؟

وضع رسول يده على صدره وقال:

- جُعِلتُ فداءك يا شيخي، المكان مزدحم بالضيوف ولم يعد هنالك أي مكان.

- إذن اذهب به إلى مكان التبن دعه يقضي ليلته فيه حتى الصباح.

مضيت مع الرسول ومكثت هناك لوحدي وكنت غارقاً في همومي أتساءل في نفسي قبل أن أغفو، تُرى هل سيسمحون لي بالبقاء هنا أم أنهم سيبادرون إلى طردي من المكان؟

في الصباح الباكر استيقظت ومشيت إلى غرفة المضيف التي يتم فيها إطعام الناس فحملت المقشة وقمت بكنسها وتنظيفها، فرآني كبير الخدم وأنا أقوم بتنظيفها فطلب مني تنظيف غرف أخرى وكنت أقوم بتلبية كل طلب يوجه إلي وأنفذ كل ما يريده بنشاط واندفاع.

وكـالأمس أحضـروا الطعـام وتوافـدت جمـوع النـاس تباعـاً حيـث أكلـوا وشـربوا وغـادروا المكـان، وحـين بـدأ عملـي معهـم يخـف وكـدت أفـرغ مـن أشـغال التنظيـف ناديت كبير الخدم وقلت له:

- في الحقيقة أنا في حرج وخجل من الذهاب إلى الشيخ لسؤاله ما في ذهنه بخصوص بقائي هنا هلا أسديتني خدمة وذهبت إليه وبالنيابة عني تسأله ماذا بشأن بقائي هنا؟

لبى الرجل طلبي وذهب إلى الشيخ وأخبره باستفساري، فأرسل الشيخ في طلبي فمثلت أمامه وألقيت عليه التحية وقمت بتقبيل يده ووقفت على قدمي، فنظر إلي وقال:

- من أنت ومن أين قدمت إلى هنا؟

- أنا من قرية "بعمدي" وقد خرجت منها وجئت إلى هنا.

ثم سألني الشيخ:

- ومن تعرف في تلك القرية؟

- أعرف الكثيرين فيها محي برو، محمود مستي، صوفي خالد، هارون خالد، تمي عيسو، عمر بري، محمد شري وسواهم من الناس أعرفهم جميعاً يا سيدي.

- هذا يكفي يبدو أنك هذا يكفي انت تعرف الكثير منهم لكن هل تعرف "سيري"؟

- نعم.

- وهل تعرف "زلخي وخيرية" أيضاً؟

- نعم أعرفهما أيضاً.

- حسناً يا ولدي والآن ما العمل الذي تودُّه وبإمكانك القيام به.

- بإمكاني القيام بأي عمل في البيت هنا، كل ما تريده إلا أن ترسلني البراري والغابات والوديان والسهول.

- يا بني انظر هنالك نبع ماء يبعد عن القرية ما يقارب الكيلو متراً واحداً ومهمتك جلب الماء على ظهر الحمار، تضع العصا على ظهره وتعلق عليها أربع جرارٍ مملوءة بالماء ثم تأتي بها إلى هنا وتفرغها بالجرار الكبيرة.

سررت بعرض العمل وانحنيت وقبلت يده وقلت له:

- أنا ممتن لك جداً أنا موافق على العمل وشرعت بالعمل فقال:

- توقف لدي سؤال: ما اسمك؟

- اسمي علي سليمان.

- هذا جيد إذن امضِ إلى عملك.

عندما انتهى حديثي معه وابتعدت عن البيت قلت في نفسي: يبدو أنه كان من المناسب استبدالي لاسمي بهذا الاسم، حينها تنفست الصعداء واستنشقت الهواء بعمق بعد أن زالت حالة توتري وتعرقي من مقابلته وتبددت هواجسي في احتمالية عدم تأمينه للعمل وطرده لي.

في اليوم التالي بدأت بالعمل واتجهت نحو نبع الماء وفعلت ما طلبه مني أحضرت الماء وأفرغته في المكان المخصص، كنت أتناول الكثير من الطعام لأرمم جسدي المفتقد للغذاء لشهور طوال ولأستعيد طاقتي وقوتي، وكان عليّ ألا أُبدي أية وساويس أو خوف من شيء لئلا أُطرد أو أُقتل فمكاني الآن مريح وجيد وأنا في غاية الامتنان لهم.

ثم سمعت أن ولداً عندهم يقوم بنقل الماء قبل مجيئي كل يومين مرة وإلى جانب نقل الماء كان مكلفاً بمهام أخرى في بيتهم لم يكن يؤديها ويتقاعس عنها، فقد كان يهمل طعام الحمار فيجوع ويتأخر في العودة من النبع وجلب الماء وعلى ذلك فقد انتبهوا للفرق بين أدائي للعمل وأدائه وكانت تلك المقارنة لصالحي إذ أدركوا أنني أقوم بما يقوم به ثلاثة رجال مجتمعين.

حتى أنهم تحدثوا في أمري مع الشيخ وأخبروه بنشاطي وإخلاصي في العمل الأمر الذي جعل محبة وتقدير الشيخ لي في ازدياد فقال لخدمه وعماله: احرصوا على راحة هذا الولد وإياكم أن يقوم أحدكم بإزعاجه.

مرت سنة كاملة على مكوثي مع تلك العائلة وكنت دائم الشكر والامتنان لها إذ غيرت مجرى حياتي وأيامي نحو الأفضل بتعاملها الحسن معي الذي استمر حتى حطت المجاعة رحالها في القرية وساءت أحوال الناس، وكان من الصعب الحصول على القمح في ذلك الحين، الأمر الذي انعكس سلبا على وجودي بينهم سلباً.

في بيت الشيخ كانوا يأتون بالذرة والشعير ويقومون بتحضير الخبز منهما ويقدمونه للعمال والخدم في المنزل أما خبز القمح فكانوا يقدمونه للشيخ وكنت أتناول خبز الذرة والشعير مع العمال والخدم، وفي بعض الأحيان كانوا يقدمون خبز القمح لي لكوني كنت أحظى على رضاهم وإعجابهم بعملي.

ثم بدأ الغلاء والمجاعة يزداد وتضيق دائرة العيش، وكان الروس يقتربون من أرضنا ومع ذلك ظهرت موجة جديدة من اللجوء، وأفواج من الناس تحل وتتزايد في

القرية وتتسع معها مساحة الجوع ويضرب الفقر أطنابه وبدأت معمعة الحصول على الطعام ومات الكثيرون من الجوع، وكما انتشرت الأمراض والأوبئة التي افترشت المنطقة مع تزايد الغلاء والجوع وأودت أيضاً بحياة الكثيرين.

حتى أنني لم أسلم من المرض وتعرضت إلى "الكوليرا "المرض المتفشي بين الناس والذي أقعدني في الفراش ولم يعد هنالك من يقوم بجلب الماء إلى بيت الشيخ، فأوصى الشيخ رجاله بي وطلب منهم تقديم الرعاية والعناية الجيدة لي لقد كان مرضي وألمي يزداد دون وجود دواء أو طبيب وكان من الصعب تأمين الكثير من الاحتياجات في تلك الأيام.

لقد عانيت من آلام المرض الذي أناخ جسدي وأتلف قواي، ومن المجاعة التي لحقت بالناس وبي، ومن جهة أخرى كان خوفي من الأعداء يتعاظم في داخلي والمرض والألم يستبدان بي، تمنيت وقتها الموت لما كنت أعاني منه من أوجاع وعذاب دون علاج أو أمل بالشفاء..

وعندما كان الماء ينفذ كانوا يأتون للسؤال عني في حين أني عاجز عن الإتيان بأية حركة بدأت أفقد الوعي

وأخذت أتحدث دون وعي، شيء من هلوسة حرارة المرض، كنت في حال سيئ جداً يرثى له.

وكانت هنالك فكرتان تجولان في رأسي، الفكر الإسلامي والمعتقد المسيحي، وصراع التفكير بهما يحتدم ويتأزم في داخلي، الفكرتان في تضارب وجدال وتحارب دائم فيما بينهما، وجسدي وروحي كانا أيضاً ينالان حصتهما من تداعيات هذا الصراع والنقاش وتأزمه فيزداد وضعي سوءاً، وكنت أقول في نفسي:

يبدو أني ارتكبت الكثير من الذنوب حتى ابتعد الله عني بهذا الشكل وحضر عندي طيف إبليس، الكثير من الأفكار كانت تدور في رأسي في دوامة سقمي وألمي، وكنت أتساءل فيما إن متُّ من المعلوم أننا كما تقول الديانات خلقنا من تراب وعلى ذلك جسدي سيذهب التراب لكن إلى أين ستذهب روحي؟ هل ستذهب مع الهواء أم تصعد إلى السماء؟ هل ستضيع تلك الروح وهل طريق عذابها طويل؟!

لماذا ابتعد الله عني، لماذا أرسل إلي هذا العذاب والمرض؟ في تلك الحالة التي مررت بها كانت الجبال تأتي وتروح أمام عيني، وكنت أرى الجنة فوق الجبال والنار تحتها، كان الضباب تارةً يلوح ويتكاثف أمام

عيني، وتارةً أخرى يتراءى لي إبليس والملائكة، والنقاش قائم بينهم في ذلك الضباب.

وفي ذلك العالم من الخيال كنت أطرق الأبواب كلها وكانت جميعها موصدة في وجهي، وفي هذي الأثناء كنت أسمع صوتاً ينادي: افعلوا ما يلزم لئلا يهلك هذا الولد فنحن بحاجة إليه..

كان الكلام يصدر عني دون وعي مني أهذي كالفاقد عقله وصوابه وكنت حين أعود لوعيي أعجب مما كنت أتفوه به ومن أين يأتيني، ورويداً رويداً كان النور يتلاشى من عيني، وكنت أشعر وكأن الأرض تهتز تحتي، كنت فاقداً للوعي وصوت الشيخ كان لا يزال يطوف حول رأسي، وتبادر إلى مسمعي يقول:

- علي، كيف حالك يا ولدي؟

فرددتُ عليه:

- يا شيخي إني في أسوأ حالاتي.

- يا ولدي لا تتعب نفسك بالتفكير، لقد طلبت منهم أن يحيطوك بالعناية والرعاية، فأنا أحبك كثيراً لكن للأسف لا أطباء ولا إمكانية لتأمين الدواء لكني سأعدُّ لك حجاباً اسمه "حجاب الصدق" ثم أخرج قلماً وكتب

شيئاً ما على ورقة ومن ثم طواها وأعطاني إياها وقال لي:

- قل: لا إله إلا الله، الطبيب هو الله.

مضى شهر وأنا على هذه الحالة، وفتحت عيني شيئاً فشيئاً ولكن كنت قد فقدت قوتي وكان رأسي يدور وركبتاي تهتزان من الوهن والضعف، لقد أخبروني بأن الكثيرين قد ماتوا في هذه السنة بسبب هذا المرض المتفشي، لقد استغربوا من إصابتي بهذا المرض وعدم موتي. اقتربوا مني وسألني أحدهم:

- هل تعرف ماذا كنت تتكلم في مرضك ولا وعيك؟ لقد كنت تتحدث في أشياء فلسفية، أتعلم أنني كتبت كل ما تكلمت به وأعطيت الشيخ إياه؟

ثم استدعاني الشيخ بالنداء علي وقال:

- يا ولدي من كان هذان الرأسان اللذان كانا يمثُلان أمام ناظريك؟ أنت الآن تمتلك رأساً واحداً، أين هرب الآخر؟

- قلت له: يا شيخي لا أتذكر ما كنت أنطقه.

- لا لا... أنا سأفسر لك ما كنت تتحدث به، إن الرأس الأول كان أرمنياً وأما الثاني الذي هرب فهو المسلم، عندما تمعنت كلماتك فهمت المعنى والمغزى،

فكران كانا يدوران في رأسك أما الآن فعليك أن تقرر الثبات على فكر ورأي واحد، أعرف جيداً الفكرين اللذين كنت تفكر بهما إنهما الأرمني والإسلامي، أدرك أن وضعك كان قاسياً وهي انتكاسة مرضية جعلتك ترزح تحت ضغط كبير فتخرج تلك الكلمات من لسانك، إن الحلم الذي كنت تراه كان حقيقياً ولكن عندما كنت تقول إن روحي وجسدي في نقاش وجدال فيما بينهما فإلام يشير ذلك؟

- يا شيخي إن كنت تريد الحقيقة فإن وجعي كبير وقصتي طويلة جداً لذلك اشتد المرض علي وأمسك بخناقي حتى تفوهت بما سمعتموه، لقد تراكمت تلك الأشياء أمام ناظري وأثقلت صدري حتى تكلمت دون وعي. نظر الشيخ إلي وقال:

- أنت حر يا ولدي، لك الخيار ومطلق الحرية في الثبات والبقاء هنا على دينك كأرمني أو مسلم، ما تحدثت به لا يشير إلى الفروق بين الشعوب الإنسانية، وما كنت تقوله لا يشبه الأحلام ولم يتم ذكره في الكتب ولم يَسْمُ به أحد، إنك تمتلك نفساً سامية وروحاً خالصة النقاء والصفاء، لقد بلغني ما كنت تقوله وأكثر، ما لفتني وترك أثره ما قلته بخصوص عودة جسدك إلى التراب

وسؤالك عن روحك وإلى أين ستذهب، روحك النقية تلك هي أنت، هزَّ الشيخ رأسه مرة أخرى وأردف قائلاً:

- الآن ازدادت ثقتي بك وقناعتي بك، لك الحرية التامة في اتخاذ أية وجهة وقناعة شئت وبإمكانك متى تعافيت العودة إلى عملك تدريجياً.

ثم ذهبت إلى المضافة "الصالون" كانت ممتلئة بالضيوف الفقراء والمحتاجين وكانوا قد خصصوا أيضاً غرفة خاصة للمرضى، منهم من كان يتعافى ومنهم من كان يهلك.

كان هناك أخوان يعملان بالرعي في بيت الشيخ وكانا أكبر مني سناً أحدهما كان يرعى الأغنام والآخر يرعى الأبقار، وثم أوكل إلي رسول مهمة رعي تلك الماشية وكنت أسرح بالقطعان حتى أن الأنظار اتجهت نحوي بالحسد والنميمة فكان يُقال: انظروا إن هذا الولد بمفرده يقوم بأعمال وأشغال رجلين مسلمين.

وفي أحد الأيام جاء الجنود العثمانيون مرة أخرى فهربت ولم يعرف أي أحد مكاني، افتقدني الشيخ وكان دائم السؤال عني: أين ذهب ذلك الولد، أغنامنا وأبقارنا بقيت في القرية دون رعي ولا أحد يسوقها إلى البرية، بعد ذلك كلفوا شخصين بالعمل عوضاً عني، أحدهما

يسرح بالأغنام والآخر يسرح بالأبقار، فقلت في نفسي: لا يجوز يجب أن أذهب إلى بيت "حمو - والد الزوجة" الشيخ، ولم يكن بيته بعيداً عني، وبينما كنت أهرب في ذلك الوقت رآني اثنان من خدم الشيخ، فقال لي أحدهما:

- تمهل لا تهرب إن الشيخ قد قام بترتيب وضعك.

ثم أردف آخر قائلاً:

- أعطوه قطعة من الخبز يبدو أنه جائع.

أكلت الخبز ومضيت بصحبتهم إلى بيت الشيخ، اقتربت منه وقبلت يده، قال لي:

- لماذا هربت يا ولدي؟

- يا سيدي لقد أصابني الذعر حين رأيت الجنود فهربت لئلا يمسكوا بي، حتى أنني اضطررت لأن أقول له أيضاً أنني الأرمني الوحيد الناجي هنا وكان من الممكن أن يلقوا القبض علي ويقتلوني لولا أن أنقذتني قدرة السماء.

- لا تخف يا ولدي اطمئن لقد قمت برعاية الآلاف من أمثالك، اذهب إلى عملك واعمل دون توجس.

ومرة أخرى قاموا بتسليمي القطعان لكي أسرح بها في البرية، وفكرت كيف لي أن اذهب بمفردي إلى البرية

قد أضجر من الوحدة وهناك جلست على الأرض وحولي القطعان، كنت أسلي نفسي بأن أمرر أصابعي على التراب أسويه واكتب اسمي عليه.

وفي أحد الأيام سقت القطيع إلى رأس الجبل، وبينما كنت أتمشى ببطء تبادر إلى سمعي صوت أحدهم يقول:

- أيها الولد الأرمني.. شعرت بالخوف يجتث أوصالي فهرعت إلى تسريع خطواتي دون أن ألتفت، فصاح بي الشخص الذي كان يناديني باسم علي:

- لا تخف، لا تخف، توقف فأنا أيضاً أرمنيٌ مثلك، عندما نظرت خلفي رأيت رجلاً أشبه بالدب لحيته بيضاء حسبته لأول وهلة حيواناً، صرخ بي مرة أخرى وقال:

- توقف.. أقسم لك بالمسيح أني أرمني أيضاً، عندما سمعت اسم المسيح تمهلت قليلاً واطمأننت له بعض الشيء ثم توقفت واقتربت منه قال لي:

- هل بقي أحد من الأرمن هنا؟

- وهل بقي أرمن في بقعة من هذا العالم حتى تعثر عليهم هنا؟ أهذا سؤال تسأله؟!

- اهدأ نعم لقد بقي الكثير من الأرمن. انتفضت فرحاً وسألته:

- وأين بقي الأرمن يا ترى؟

- في فارقين، ديار بكر، البشيرية وحلب، لسماع هذا الخبر هممت بالصلاة وقلت مرة أخرى:

(باسم الأب والابن وروح القدس آمين) فقال لي ذلك الملتحي:

- تعال نذهب للخلاص من هذا المكان فنتحرر من هذا العذاب ونخرج من بين هؤلاء المسلمين.

- لا أستطيع الذهاب معك الآن، فأين ولمن سأترك هذا العدد الكبير من الأغنام وعدا ذلك سيقومون بقتلي، اذهب أنت وأخبرني بمكانك وسألحق بك فيما بعد.

اتفقنا على الأمر واستدار الرجل ومضى في طريقه ثم تذكرت فجأة: كيف عرف هذا الرجل أني أرمني؟ فناديته في الحال:

- تمهل من فضلك، من فضلك كيف عرفت أنني أرمني؟

- ضحك ملء فمه وقال ألست "ديكران"؟

ونظر إلي بإمعان وقال: ماذا كتبت على التراب؟ حينها تذكرت كيف عرف أنني أرمني...! ودعته وقبَّلته وافترقنا على أمل اللقاء.

بقيت لوحدي مع الماشية وسرحت في عالم تخيلاتي وأفكاري وتساؤلاتي هل حقيقة أن هنالك من يتنفس

الحيـاة مـن الأرمـن علـى وجـه الأرض؟! وإن كـانوا موجودين بالفعل فأين هم الآن؟

أين بإمكاني العثور عليهم ولقاؤهم! الخوف يتسلل إلى قلبي وأشعر بأنه عليَّ الهرب، لكن قبل إقدامي على ذلك عليَّ أن أتأكد من صحة ومصداقية كلام ذلك الرجل ومن ثم أمضي إليهم، يجب أن أتأكد من أن نسيج الأرمن لم يحترق بالكامل وشعبه لم يحترق بالكامل أو ينقرض.

أربع سنوات مرت على حدوث المذبحة بحق الأرمن، وكنت أبلغ العشرين عاماً من العمر ترى هل سيظهر الأرمن في هذا العالم المكفهر وأين؟ هل سيأتي يوم أجد نفسي بين شعبي الذي أنتمي إليه روحاً وفكراً وعقيدة وإيماناً؟

كان هناك رجل مسلم القرية يتردد دائماً إلى القرية يقصد بيت الشيخ لكني لم أكن أرغب برؤيته لي هناك، إلا أني الآن أريد رؤيته لأسأله فيما إن كان هنالك أرمن لايزالون في القرية أم لا، لقد كان رجلاً عارفاً ومطلعاً على هذه الأمور والشؤون وله إلمام بأوضاع الأرمن والكرد. دأبت في البحث عن هذا الرجل حتى عثرت عليه والتقيته وسألته:

- هل بقي في تلك القرية أرمن أم لا؟

رمقني بنظراته وقال:

- ولمَ تسأل؟

- صهري حسين كوجو في تلك القرية وهو مسلم لا أرمني أودُّ معرفة أخباره.

- نعم أعرفه، أكمل ما تريد قوله:

- وهناك حسين حميد أيضاً.

- أيضاً أعرفه، انظر لقد قتلوا الأرمن جميعهم في هذه النواحي، وهناك بعض الأرمن أخذهم حسين حميد إلى بيته وهم الآن يقومون بخدمته والعمل عنده يأكلون ويشربون معاً.

عندما سمعت بهذه الأخبار انشرح صدري وشعرت بالطمأنينة وأشرق وجهي ومنذ ذلك اليوم تلاشى الخوف عندي تدريجياً عرفت أن قسماً من الأرمن منذ ذلك التاريخ قد أسلم ومن الممكن أن تكون خالتي بينهم وعلى قيد الحياة فأراها مجدداً، أعرف الطريق إليها وكنت أتحين الفرصة للذهاب إليها بفارغ الصبر، وبينما كنت أتخيل القادم وأفكر وأتحدث في نفسي جاءني والد زوجة الشيخ بأغنامه وطلب مني أن أسوقها إلى معي للرعي في البرية، قالت زوجة الشيخ:

- علي خذ هذه الأغنام أيضاً إلى البرية إلى جانب ما معك من ماشية.

- يا سيدتي العدد سيكون كبيراً معها ويصعب عليَّ سوق هذه الأعداد من الأغنام كلها بمفردي.. حتى أنه مجهد للغاية أنه صار لي أربع سنوات أعمل معكم هنا بمفردي. عند ردي ما كان لها إلا أن حملت العصا واتجهت نحوي لتضربني وقالت بنبرة غضب:

- لقد مات وتشرد الكثير من أمثالك من الشعب الأرمني ومات الشعب المسلم من الجوع وقمنا بتربيتك ورعايتك هنا حتى تمكنت من الخلاص والنجاة من أزماتك وانتكاساتك وقام الشيخ بترتيب وضعك، والآن أرمني مثلك يقابلني بهذا الرد؟!!

توقف، لقد كنت أبحث عن فرصة كهذه لأقوم بعمل شيء لك لن يخطر ببال الشيخ.

بقيت تلك الليلة مستيقظاً حتى الصباح بعد أن زرعت زوجة الشيخ حولي المخاوف ودبت فيَّ التوتر والقلق من جديد، وهنا بدأت أفكر ماذا بإمكاني فعله وكيف أستطيع الهروب دون أن يراني أحد أو ألفت الأنظار وبلا شك سيراني أهل القرية..

وفي حال تمكنت من الخروج إلى أين سأتجه والطريق في الليل شديد الوعورة محفوف بالحفر والوديان والمياه والجبال، وأنا وحيد ومن المؤكد أن الخوف سيحاصرني لحظة بلحظة وسأشعر بالخوف.

طوال الليل وأنا أفكر بالمغادرة حتى عقدت العزم عليها، وفي الصباح الباكر شرعت بالمسير، كنت قد ابتعدت كثيراً عن قرية الشيخ، وعندما أشرقت الشمس دخلت غابة وتغلغلت فيها وتبادرت إلى مسمعي أصوات حيوانات مختلفة، قلت في نفسي: إنه فصل الصيف ولن يصيبني مكروه فالجو ليس بارداً وبإمكاني النوم في أي مكان.

مضى يومان وأنا على هذي الحال دون طعام وشراب والجوع يجتر ضلوعي حتى فقدت قواي وتهالك جسدي وبعد مسير شاق وصلت القرية، دخلتها وجلست في مكان فيها أستريح من عناء المشي وكل شيء قلت في نفسي:

من المؤكد أن بيت خالتي سيكون هنا، ترى هل سيكون حسين موجوداً هنا أم سيكون قد رحل عن هذي الديار، ثم إن كان قد غادرها ماذا سأفعل وإلى أين سأمضي بأثقال همومي وتعاستي؟!

لبثت جالساً على هذي الحال لمدة ساعتين كنت غارقاً في أفكار تنهش مخالبها رأسي فتناهى إلى سمعي صوت ينادي:

- سيتو، سيتو، تعال لقد جاؤوا، فرفعت رأسي وأخذت أنظر في الاتجاهات حيث مصدر الصوت الذي بدا لي أنه على مقربة مني وعلى الفور فاستجبت ميمماً بوجهي إليه وكان أحدهم يشرع بمناداتي ويسألني باللغة الأرمنية:

- من أنت؟ هل أنت آرتين؟

- لا لا، أنا ديكران ألا تعرفني، ألم تعرفني؟ كيف لك ألا تعرفني! أنا ديكران بن ميلو، نعم أنا ديكران، ومن شده ذهوله أخذ يضرب بكلتي يديه على رأسه وأقبل عليَّ يعانقني ومن فرط الألم الممزوج بالفرح ما كان منا سوى أن استسلمنا للبكاء معاً، ومع انهمار الدموع كنت أعاتبه وأذكره:

- كيف نسيتني بهذه السرعة؟ هل نسيت أحاديثنا فيما سبق أيان كنا نسرح بالأغنام والأبقار؟!

ثم مضينا سوية إلى بيت خالتي التي صعقها الحدث ولم تصدق ما رأته عيناها فما إن رأتني حتى اندفعت نحوي وارتمت في أحضاني، لقد احتضنتني بقوة

وتحولت عيناها إلى سحابتين تمطران وابلاً من الدمع بلا فكاك وهي تصيح وترفع يديها إلى السماء وتصرخ:

- شكراً وحمداً لله لكونك لازلت حياً بعد ذلك المصاب الحمد لله يا الله.. الحمد لك لأن ولدي لا يزال يتنفس الحياة لأنك نجيته من تلك المذبحة والموت.. ديكران يا ولدي أخبرني أين أهلك أبوك أمك أخوتك أخواتك أعمامك أخوالك أبناء عمومتك وأخولك أين هم الآن؟؟

بالله عليك أخبرني وأثلج قلبي هل لديك أية فكرة عنهم؟ أين هم الآن؟ هل نجوا؟ أخبرني بسرعة يا ولدي هل هم الآن أحياء أم لا؟؟ طمئن قلبي يا بني أرجوك...

أصابتني أسئلتها المتوترة المصحوبة بارتجافاتها وصراخها الخارج من أعمق نقطة في قاع القهر والوجع بالعجز التام، وجعلتني أتوقف للحظة أفتش عن منفذ ألتقط فيه أنفاسي وأستجمع شيئاً من ثباتي علَّني أتمكن من النطق بل النبس بحرف كسير أو أقوى على إخبارها واحتواء شيء من صدمتها معاً وكفكفة نزيف جرحي واختناق حنجرتي بما كتمته في داخلي من أنين العذاب ورحلة شقاء جرتها تلك المأساة.

اضطرمت من جديد نيران وجعي وطفح صدري بنشيج لاهب مستعر فاغرورقت عيناي بدموع حارقة في تلك اللحظة...

أحاسيسي المصابة بخدر توالي المحن والأرزاء وتتابعها في رحلة تشردي بدأت تعود إليَّ وتصحو في داخلي بعد سبات طويل أشبه بالموت، لينتفض بركان الجرح الخَدِر من أعماق قلبي بالصراخ لحظة مثولي أمام خالتي وعناقي لها المفعم برائحة أمي وأهلي...

لماذا أيقظت صوت وجعي وأنيني يا خالتي؟!!

ثم قلت:

- لا يا خالتي لم ينجُ أحد منهم لقد قتلوا جميعاً...

في تلك اللحظة ضاقت السماء والأرض بل ضاق الكون بأكمله وعجز عن استيعاب صرخات وخالتي وعويلنا ونواحنا، ربما أراد أن يلملم نفسه خجلاً مما حدث على مرآه بينما امتثل لموقف الصمت إذ لا صدى للصوت على ضفة الوجع، ناجت دموعنا تلك الدماء في مجاري الأنهار التي ألقيت فيها الجثث أصبح الهواء خانقاً حدّ الموت، ارتدت الشمس حلة عزاء سوداء، الشيء الوحيد الذي لا تشربه الأرض هو الدماء لكنها شربته حدَّ التخمة وخالفت قانون الطبيعة وتمخض عن

ذلـك ألـم لا يُنسـى وتـاريخ دامٍ يكـون فـي كـل لحظـة استذكار حاضراً مُعاشاً ينهش أوصال الذاكرة.

مضـت أيـام علـى ذلـك اللقـاء ثـم ذهبـت خـالتي برفقـة سيتو وعادا مصطحبين ثلاثة أشخاص إلى المنزل تحدثوا إليَّ وأبدوا الدهشـة العارمـة لرؤيتي حيـاً بـرغم مـا جـرى وانهالوا عليَّ بزخم من الأسئلة والاستفسارات بخصوص ذلك الحدث وأحوالي بعدها.

بعد ذلك مكثت في البيت طريح الفراش منهك القوى مـن جـراء مـا أصـابني مـن الإرهـاق والعـذاب اسـتجمعت فيها بعضاً من طاقتي وقواي للمضي إلى الحصاد حيث جمعنا القمح وأتينا به إلى البيت.

كنـت آنـذاك فـي الحـادي والعشـرين مـن العمـر وكـان هنالـك رجـل فـي مدينـة (فـارقين) اسـمه "هوغـاس" وهـذا الرجل من بين الأشخاص الذين نجوا من المذبحة وعلى علم بأحوالي إذ بلغته أخبار نجاتي وتشردي وحاجتي.

وفي أحد الأيام أرسل إلي برسالة ودية مع أشـخاص محملـة بتحيـات وديـة وتهنئـة للسـلامة وأخبرونـي بأنـه يطلب مني الذهاب إلى فارقين لتوفر الفرص بشكل أكبر حسبما قال قياساً بالقرية التي لا تمتلك مقومات العيش الكافية ولا مجالات للعمل فيها وحين تكررت لمرات

دعواته ومراسلته لي وتأكيده على أنه لا جدوى من البقاء في القرية قررت أن أذهب إلى هناك.

حين قررت الذهاب بدأت أفكر بسوء وضعي المعيشي وكيفية ذهابي إذ لا مال ولا طعام ولا لباس يناسب الخروج إلى المدينة، لا شيء وفير سوى تعاستي وبؤسي ثم قلت في نفسي: حسناً سأمضي وأستطلع الأجواء والمكان ومعاملة رب العمل هذا فإن راقت لي الأمور وناسبتني سأمكث وإلا فأعود أدراجي إلى بيت خالتي في القرية.

كان من المحزن لي ترك خالتي فحين أخبرتها بالأمر تألمت لفراقي من جديد وطلبت مني البقاء معها وتقاسم الفقر وبساطة العيش معاً:

- بالله عليك يا ولدي ألا تذهب فأنا بالكاد رأيتك ولم أصدق عيني، كيف ستتركني وتبتعد عني بعدما وجدتك؟!

- الشتاء قادم يا خالتي ومتطلباته صعبة وكما ترين من سوء أحوالي لا دخل ولا عمل حتى أن وضعكم المعيشي ليس بجيد، ما أريده منك ألا تحزني فإني سأعود إليكم مجدداً في الربيع القادم أعدك بذلك.

كان قاسياً علي إقناعها بعدم الأسى والافتقاد وقد كان عثورها علي حلماً عصي التحقق وتحقق، وكانت تشتكي حزنها وقرار مغادرتي للأرمن الذين يزورونها لتهنئتها لوصولي إليها بسلامة وأمان، كنت قد سمعتهم يتحدثون بشأني بينما أستعد للمضي:

- انظروا سيتركني ويذهب إلى فارقين..!

ردَّ عليها أحد الزائرين:

- مسكين سيذهب ومن ثمَّ سيرجع إلى القرية..

هممت بالرحيل عن القرية وودعت الحاضرين في بيت خالتي كفكفت بعض حزنها وقبَّلتها، وغادرت حاملاً حقيبتي المثقلة بألمي لأجلها والكثير من شارات الاستفهام بخصوص سير خطوات دربي.

في طريقي إلى فارقين كنت أغني مستبشراً متفائلاً بتغيير بتطور أوضاعي فيها وأنا في ربيع العمر أرسم أحلاماً أتمنى أن تكون واعدة بمستقبل أفضل، ربما سأكون في مكان لن يعترض فيه أحد طريقي ولن يتعرض لي أحد بسؤال فيما إن كنت أرمنياً أو كردياً أو مسلماً أو مسيحياً أو أي سؤال آخر فضولي أو استهدافي أو موجَّه..

ومن جهة أخرى كانت بعض الشكوك تتسلل إلى تفكيري أثارت زوبعة من الخوف في داخلي: ماذا لو عرفوا أنني أرمني؟ بلاشك سيقتلونني..

رفعت يدي إلى السماء وأرسلت إليها أدعيتي وسألت الله تحصيني وتسديد خطواتي وتيسير طريقي وتذليل الصعاب التي قد تعترضني كانت خطواتي تتسارع بغية الوصول إلى صاحب العمل ومعرفة الأشياء، وفي أثناء سيري اعترض طريقي ثلاثة رجال يلفون سجائر التبغ بسؤال:

- أيها الشاب هل بحوزتك نار "مقدحة"؟ إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى بيت صادق بك.

- أتخدعنا؟!

- الحمد لله حقّ حمد رسول الله، إنه لأمر معيب أتحسبونني كافراً؟!

قال الآخر:

- اقرأ بسم الله..

- بسم الله الرحمن الرحيم الله رب العالمين، أبي أيضاً شيخ.

- حسناً دعه وشأنه وليمضِ في طريقه.

اقتربت سيدتان منا وعندما سمعتا كلمة شيخ قالتا:

- جعلنا الله فداءً لك.

فيما بعد أخبرتهما بأنني مجرد عابر سبيل وواصلت سيري....

آزنيف الأرمنية

الكثيرون من الأرمن وثقوا مجريات المذابح التي تعرض لها هذا الشعب سنة ١٩١٥ سواء في ذاكرة تمنت نسيان خريطة عذاب بشري لا تُنسى ارتسمت في تلافيفها، أوفي كتاباتهم ومدوناتهم لتكون شاهداً حياً على ما حلَّ بهذا الشعب المضطهد.

وكانت (أزنيف) والدة المطرب الكبير "آرام ديكران "ممن سردوا قصص جراحاتهم النازفة في ظل المجازر التي تعرض لها الشعب الأرمني قالت:

كنت طفلة بريئة في العاشرة من العمر عندما بدأت المجازر بحق الأرمن في سنة ١٩١٥م وكانت معي أختي الصغيرة "خاتون" في السابعة من العمر أتذكر من ذلك العام تلك الأيام السوداء المظلمة بالشرور التي حاصرتنا وألمت بنا ونالت من إنسانية شعبنا:

لا أعلم كيف مرت تلك الأيام العصيبة ولا أظن أن جحيماً كجحيمها من الممكن أن يحدث في أي مكان

حتى في جهنم ذاتها، ما أتذكره أن أولى خطوات مصاصي الدماء كانت سوق الكبار وذبحهم ليبقى الأطفال في ضياع وتشرد كانوا يربطون أيادي الكبار رجالاً ونساءً ويقتادونهم إلى جهات بعيدة ليلقوا حتفهم ويُقتلوا بأقسى صور القتل الوحشية التي قد يترفع عنها ضارٍ جائع في الصحراء...

ويبدأ الأطفال بالصراخ والبكاء وهم يركضون خلف آبائهم المساقين أمام أعينهم إلى الموت وأصوات الآباء والأمهات والأبناء والشيوخ التي كانت تشق السماء كانت تعود مخذولة بلا غوث أو رحمة..!

أتمنى ألا تمر هكذا مصائب على أيٍّ من الشعوب لأنها جرائم إنسانية فادحة لا يمكن أن يصدقها العقل ولا يمكنني نسيانها فجميع الصور والمشاهد لا تزال راسخة على مرآي أبصرها أمامي وأتمنى نسيانها، إنها نصل عميق الإيلام ينحر قلبي فينزف كلما تراءت لي..

بدأ رجال الدولة العثمانية والمتآمرون معهم باقتحام بيوت الناس وقاموا بنهبها وسرقتها بكل ما فيها من أثاث ومكتنزات من القطع الثمينة والأواني والمؤونة من السمن والجبن والقمح حتى أنهم أقدموا على الفتيات والنساء لتدنيس شرفهن وكرامتهن، لقد فعلوا كل ما

أمرتهم به نوازع نفوسهم في سبيل سحق وجود هذا الشعب، وحاولنا جاهدين إرسال صرخاتنا وعويلنا واستغاثاتنا إلى العالم الذي أصيب بالصمم لحظتها.

حين حلَّ المساء كان بيتنا مجرداً من كل ما يشير إلى حياة كانت قائمة قبل تلك الواقعة المشؤومة، كان محطم الأبواب والنوافذ، خالياً من كل شيء، مسكوناً بخوفنا وهلعنا نحن الطفلتين، حتى أنه لم يعد فيه ما يمكن أن نستلقي عليه ونغفو بعد إعصار سحق موجوداته كلها.

اقترحت عليَّ أختي الصغيرة أن نلتجئ إلى جيراننا المسلمين ونطلب منهم العون والمساعدة، وحين طرقنا بابهم كان جوابهم:

اخرجوا أيها الكفار يا من لا دين لديكم أو عقيدة كيف تركوكم ولم يُجهزوا عليكم؟! بِتُّم الآن عالة علينا ليتهم قتلوكم واسترحنا من بلائكم.

عدت وأختي مخذولتين إلى بيتنا الخاوي من كل شيء ومن الأهل والأقارب لم يكن بوسعنا فعل أي شيء سوى النحيب والصراخ بين جدرانه التي كادت أن تهوي حزناً وألماً لأجلنا لكنها لم تفعل رأفة بنا.

حين طردتنا جارتنا المسلمة كانت قد قالت لنا:

- ابتعدوا عن هنا.. بإمكانكم التسول وطلب الخبز والطعام من الناس أم أنكم لا تستطيعون؟! وكنت قد أجبتها:

- يا خالة كيف لنا أن نقوم بذلك ونحن لم نعتد مطلقاً على فعل هذا الأمر؟

- لكنكم الآن مضطرون للقيام بذلك وما من مخرج أمامكم سوى ذلك.

وسط بكائنا في بيتنا الموحش واستذكار ما اقترحته علينا الجارة قلت لأختي: دعينا نخرج ونطرق أبواب الناس لنأتي بما نسكت به جوعنا وهذا ما حدث حيث وقفنا أمام أحد البيوت وطرقناه فخرجت لنا امرأة:

- سيدتي أنا وأختي جائعتان ونريد بعض الخبز فدخلت وأتتنا ببعض الخبز وكأن الله قد أدخل شيئاً من الرحمة واللطف في نفسها، ثم مشينا إلى بيت آخر وطلبنا طعاماً فما كان من صاحبته إلا أن تجهم وجهها وأخذت تهيننا:

- ولتموتا من الجوع اذهبا، أنتم الأرمن عظامكم مدنسة وعلى الفور بازدراء أغلقت الباب في وجهنا.

مكثت وأختي والألم والقهر يجزُّ أوصالنا مما وصل بنا الحال إليه من معاناة، حتى أننا اعتدنا على سماع

إهانات الناس لنا لكوننا كنا نطرق بيوتهم كل يوم طلباً للطعام فباتت سباب الناس والتسول شيئاً معتاداً، حتى أن أولاد الأرمن جميعاً بعد تلك المجزرة انتهت بهم الأقدار القاسية إلى المصير ذاته من التشرد والتسول شأنهم شأننا في ذلك الأمر الذي كانت له تداعياته، إذ أثار ذلك بلبلة في المناطق والأحياء التي يقصدها الأطفال، وتسبب للمسلمين بالسأم والتذمر من أطفال الأرمن الذين يتمتهم الحادثة بعد فقد آبائهم وأمهاتهم وأولياء أمورهم وهوت بهم إلى منحدرات وحضيض البؤس والضياع.

وسط هذه الظاهرة المتفشية اجتمع وجهاء المسلمين في تلك المناطق واتفقوا على تقديم شكوى جماعية من صغار الأرمن وأطفالهم الأيتام وقدموها بالمحتوى الآتي:

"لقد قتلتم الكبار من آباء وأمهات وتركتم أطفالهم يعيثون فساداً ليكونوا بلاءً علينا، الأطفال يقومون بسرقتنا فماذا نفعل بهم، أخرجوهم من بيننا".

اطلعت الدولة العثمانية على شكواهم وأخذتها بعين الاعتبار، وذات يوم رأيت تجمعاً لأطفال الأرمن في بقعة واحدة في الحي، حينها أخبرنا أحد رجال الدولة بأنهم

قد جمعوهم ليأخذوهم إلى مكان يقدمون لهم فيه الطعام والشراب.

في بادئ الأمر أخذونا إلى مكان تابع للحكومة وقدموا لنا الخبز، ثم ربطوا أيادينا جميعاً بعضها ببعض فشرعنا بالصراخ والبكاء فنهرونا وطلبوا منا عدم الصراخ وأخبرونا بأنهم سيأخذوننا إلى حيث آبائنا أمهاتنا... "لقد كانوا يعنون إلى مصير آبائنا وأمهاتنا حيث الموت لكن طفولتنا البريئة لم تكن تدرك أو تصل إلى خبث نواياهم".

لقد ساروا بنا في طريق طويل بعد أن تجاوزنا القرية كان طريقاً وعراً جداً محفوفاً بالحفر والصخور تعمدوا أخذنا عبره لضمان عدم عودة أيٍّ منا إلى القرية، ثم توقفنا في منطقة منخفضة لساعات فرأينا مجموعة أخرى من الأطفال قادمة نحونا ليتم ضمها إلينا وكانوا قد قيدوا أياديهم أيضاً.

في ذلك الطريق الشائك بالصعوبات ساقونا كقطيع من الأغنام وكانوا يضربون الأولاد ويشتمونهم ويبصقون على وجوههم وينعتوننا بـ: أبناء الكفار بنات الكفار.

مكثنا في جوع وعطش لأيام متتالية وكنت أسأل أختي خاتون عن اتجاهات المناطق: باسور، سهل سليفا، فارقين.

عندما تيقن العثمانيون من عدم قدوم المزيد من الأولاد أجبرونا مجدداً على مواصلة السير بين الهضاب والأودية، وبين الحين والآخر كانوا يأتون للتأكد من متانة الحبال التي تقيد أيادينا وأرجلنا، ثم اتجهوا بنا نحو وادٍ عميق كنا قد أشرفنا على منحدره بعد مشي طويل مجهد وهناك بدأنا نتهاوى ونهوي واحداً تلو الآخر ومع الآخر في الوادي حتى بتنا أكداس أطفال متراصة في أسفله، وهنا بدؤوا يطلقون الرصاص علينا من الأعلى كمطر هاطل استحضر صراخاً وهلعاً يجاري سعار قيامة تعالى فيها عويلنا وصداح أرواح الأطفال في فضاء ليس فيه أدنى ذرة من الرحمة...!

فعلى اتساعه وشساعته فإنه لم يستطع أن يحتوي تلك الجريمة المروعة! ما جرى لا يعقل أن تكون السماء قد أبصرته بعين الشمس ثم أغمضت عينها عنه.. لكنه حدث!

لحظات كانت أشبه بزلزال يصيب الأرض ويرهب الإنسان، لقد كان العثمانيون معدومي الإنسانية الرحمة والشفقة يطلقون نار بنادقهم علينا نحن الأطفال كما لو كنا دجاجاً وطيوراً لا بشر، كان الذعر يجتث قلوبنا وضلوعنا الطرية ويؤجج دواخلنا ويجعلنا نضع أكفنا

على أعيننا وأصابعنا على آذاننا لئلا نرى ما يحدث بيننا، أو كيف نفارق الحياة بعضنا فوق بعض ونحن نسمع أصوات بنادقهم التي ترمينا بنيرانها من الأعلى.

رأينا أقسى ما يمكن أن يراه الإنسان، وفي ريعان ونضارة طفولتنا النضرة، بلغنا الشيب بهذه الواقعة منذ نعومة أظفارنا إذ براعم الزهر تتفتح، فماذا بعد مما يمكن أن نرهبه فيما سنصادفه في سنين العمر القادمة وقد التقينا بالموت وتجاوزناه؟! بالطبع لا شيء...

مضى وقت لا أعلم امتداده فساعة الزمن توقفت عند صرخات الطفولة وتنحي الكون وتبرئه منها وحشره لنفسه في زاوية الظلمة والصمت في الوقت الذي كان عليه أن يفعل شيئاً أو يأتي بمعجزة إلهية شبيهة بالمعجزات التي كانت تحدث في أزمان الأنبياء ينقذ بها أرواح الأبرياء.

التفتُّ حولي فرأيت نفسي بين ركام الجثث وأنين الأطفال الذين يحتضرون والدم يسيل نازفاً من قدميّ والنار تشتعل بثوبي، بدت لي إصابتي وجراحي في أربعة مواضع كانت أربعة رصاصات قد اخترقت جسدي وكان الألم أكبر من أن يحتمله هذا الجسد الصغير والضعيف حتى أنني أصبت بالإغماء لرؤيتها.

بعد وقت شعرت بأنه كان طويلاً وجدت نفسي أعود إلى الوعي فأخذت أنظر حولي باحثة عن أختي خاتون التي لم تظهر لي وكانت قد توارت بين جثث الفتيات والأولاد القتلى، التفتُّ إلى الأعلى حيث كان الجنود يطلقون النار علينا من جبهتهم السفاحة فلم أرهم كانوا قد أنجزوا مهمتهم وغادروا المكان، حتى العصافير التي كانت في المكان هجرته فزعاً وبلا شك تألمت لمصاب العصافير الأيتام كثيراً قبل أن ترحل.

لم أكن أعلم فيما إن كنت سأموت أو تكتب لي الحياة حاولت النهوض قليلاً علني أرى أختي خانون إلا أن قدميَّ لم تسعفاني فارتميت مكاني، الصوت الوحيد الذي كان هو أنين الأطفال الذين لا يزالون في سكرة الموت يتأرجحون بين الحياة والموت ثم فقدت الوعي مرة أخرى.

مر المزيد من الوقت لا أميز الليل من النهار، كان الوادي غمامة حالكة ثم تناهت إلى مسمعي أصوات نسوة كن يتحدثن فيما بينهنَّ وعرفت أنهن من نساء المسلمين الفقراء اللواتي كُنَّ يقمن بنزع الثياب عن أجساد الأطفال ليأخذوها لأولادهم.

تمنيت لو أنني مت في تلك اللحظة ولم أرَ ما رأته عيناي لكن قبل موتي كل ما أريده هو أن أشرب الماء فقط ثم يأتيني صوت:

- آزنيف.. ألم يقتلك المسلمون؟؟

يا إلهي إنه صوت أختي خاتون.. أضحكني سؤالها برغم الألم الجائر يا لها من طفلة صغيرة! إنها لا تعي ما تقوله أو كيف تتحدث..

- لا لا يا خاتون لم يقتلوني لكن كيف يكون الموت!! تعالي وانظري إلى رجلي ولا تتحدثي كثيراً الآن فقط اذهبي وأحضري لي الماء.

ذهبت خاتون على الفور وغابت قرابة ربع ساعة فشعرت بالقلق والخوف عليها إلا أنها عادت وأخبرتني بأنها رأت ساقية ماء.

- هيا آزنيف دعينا نذهب إلى تلك الساقية.

- خاتون ألم تري رجلي! انظري إليها مرة أخرى ألا ترين أنني مصابة بعدة جراح بفعل الرصاص؟ ثم أخبريني يا خاتون أين كنتِ مختبئة حتى أن الله حماك من رصاصهم؟

- كنت تحت الجثث وكدت أختنق من تراكمها فوقي.

- الحمد لله إذن لا تتحدثي كثيراً اذهبي يا خاتون وائتيني بالماء فأنا مثقلة بالجراح وغير قادرة على الوقوف والمشي ألم تسمعي الجنود العثمانيين الخبثاء المخادعين حين أخبرونا بأنهم سيأخذوننا إلى آبائنا وأمهاتنا؟ يبدو أنهم قتلوا والدينا وآباء وأمهات الجميع هنا..

ثم غضبت وصرخت: اذهبي يا خاتون واجلبي لي الماء فأنا أكاد أموت عطشاً.

- تريدينني أن آتيك بالماء كيف؟ وبأي شيء سأحمله إليكِ؟ لا شيء حولنا سوى جثث الأطفال الصغار.

وأخذت خاتون تبكي بحرقة قهر وألم والتفتت حولها فرأت قبعة لأحد الأطفال كانت قد ثقبت برصاصة.

طلبت منها أن تسد الثقب بالطين وتملأها بالماء ولو كان قليلاً، فذهبت وغابت بعض الوقت ثم أتتني بالماء الذي حين شربته شعرت ببعض خيوط نور تنير عيني إلا أن جراحي كانت كلهب النار المشتعل في جسدي تنزف وتؤلمني كثيراً.

ثم تذكرت أمي حين كانت تقول: هناك عشبة تشفي الجروح اسمها "بونك" تنمو بالقرب من مجاري الماء إن أصيب أحدكم بجروح بادروا إلى قطف هذه العشبة وطحنها ومن ثم وضعها على الجرح.

- خاتون اذهبي بسرعة إلى تلك الساقية وفتشي عن عشبة ال- بونك، وإن وجدتها اقطفيها وأحضريها لي.

- لكني لا أعرف تلك العشبة وكيف يكون شكلها.

- لا بأس اذهبي إلى الساقية وائتيني بقليل من جميع الأعشاب المتواجدة حولها عندها أستطيع تمييزها من بينها.

ذهبت خاتون وأتتني بمجموعة أعشاب متنوعة من هناك وكانت عشبة بونك من بينها.

- هذا جيد، انظري إنها بينها هذه هي عشبة "بونك" المطلوبة والآن عودي إلى الساقية واجلبي الكثير من هذه العشبة مع حجرين لطحنها.

أتتني خاتون بما طلبت وقمت بطحن العشبة على الحجر وقضينا في ذلك الوادي أسبوعين على هذه الحال في وحدة وعزلة لا يشاركنا بها ويزعجنا سوى بعض الكلاب التي تتردد على المكان لالتهام الجثث التي مع مرور الأيام كانت تفوح رائحتها القوية وكنا نرميها بالحجارة التي جمعناها حولنا لنطردها بعيداً عنا.

كانت خاتون تقول دائماً بسخط:

- أيها الكلب ألا تستطيع أن تذهب وتأتينا ببعض الخبز؟!

- كيف سيأتينا والخبز وهو من سيأكله! لا تثرثري اذهبي واجلبي بعض سنابل القمح ولا تتأخري لئلا أقلق عليكِ.

ذهبت خاتون ثم أتت بسنابل القمح، وضعنا تلك السنابل بين قطعة قماش كانت من ثياب أحد الضحايا الصغار وقد غطتها الدماء.

وضعنا سنابل القمح القاسية فيها وقمنا بتبليلها بالماء لتصبح طرية فنستطيع أكلها وكنت أتألم كثيراً من جراء تلك الرصاصات التي اخترقت قدمي وكان وضعي يزداد سوءاً يوماً بعد يوم. وفي أحد الأيام رأينا رجلين قادمين من بعيد وأخذنا نراقبهما من الحفرة التي كنا نمكث فيها، لأول وهلة شعرنا الخوف من أن يكتشفا أمرنا ويقتلانا إلا أنه تبين فيما بعد أنهما متواجدان لوصل أسلاك الهاتف، قال أحدهما للآخر:

- تلك الجموع من الأطفال القتلى منذ عدة أيام وهي على هذي الحال مرمية هنا، بينها اثنان لا يزالان على قيد الحياة، وسمعت وأختي أصوات عالية لهذين الرجلين وهما يناديان إيانا:

- أيها الأطفال يا من مازلتم أحياء هنا هيا انهضوا وغادروا هذا المكان فثمة قرية على مقربة من هنا اذهبوا إليها.

شعرت بأنهما شخصان رحيمان وأخبرت أختي خاتون بذلك ثم فكرت بمحادثتهما وظهرت أمامهما وخاطبتهما باللغة الكردية:

- يا خالي أنا مصابة بجراح بليغة في أربعة مواضع في رجلي ولا أقوى على الحركة.

أثار وجودنا على قيد الحياة دهشة الرجلين فنزلا إلينا حيث كنا في أسفل الوادي وقال أحدهم:

- إنه لمثير للعجب بقاءكما على قيد الحياة حتى الآن في هذا المكان! علينا أن نشكر الله ونحمده ماحيينا لفضله وقدرته، كيف استمررتما أحياء طوال هذه الأيام الماضية بعد مجزرة الأطفال؟!

ماذا كنتما تأكلان وتشربان وأنتما بين جثث القتلى هذه والدماء؟!

كانا يسألاني ويستفسران عن حالنا بدهشة كبيرة وكنت أجيبهما والدموع لا تنفك تتدفق غزارة من مقلتيَّ:

- لقد كان طعامنا القمح القاسي الذي كنا نعثر عليه والأعشاب والماء الممزوج بدماء الجثث وكان الله طبيبنا.

كنت وأختي على مدار الحديث في بكاء مستمر أثار ألم هذين الرجلين الذين كانا يتتبعان كلامنا وقهرنا وينظران إلينا نظرات ألم وشفقة حتى بكيا لحالنا المثير للشفقة.

ثم أخرجا ما كان بحوزتهما من الخبز وأعطونا إياه ونصحونا الاتجاه نحو القرية التي على مقربة منا في وقت كان يندر فيه وجود بعض الناس الطيبين.

كانت القرية مرئية بالنظر إليها إلا أن الوصول إليها كان يستدعي مشياً طويلاً، وهذا ما قمنا به بصعوبة بالغة فأختي الصغيرة لم تكن قادرة على إسنادي في المشي ولم يكن بمقدوري الاتكاء عليها كانت تتعب بسرعة حتى أننا سرنا في أرض قاحلة وتجاوزناها ولم أتكمن من العثور على عصا أتكئ عليها في المشي.

يا إلهي هل من الممكن أن نكون مذنبين لنلقى ما نلقاه من العذاب والمرار؟!

كانت أشعة الشمس حارقة في النهار وفي الليل لا إمكانية ولا مقدرة على النوم، ورويداً رويداً استشرفنا

القرية وبدأنا نقترب منها حيث شارفت الشمس على المغيب وإلى أن وصلنا القرية كان الظلام قد حط رحاله وأرخى ستائره السوداء.

تساءلنا والآن إلى أين نمضي؟ ماهي وجهتنا؟ أي باب سنطرق؟ ثم داهمنا كلبان وأخذا ينبحان أمامنا فخرج بعض الأطفال على أصوتهما، وبدلاً من أن يقذفوا الكلاب بالحجارة ليبعدوها عنا قاموا برمينا بها وصرخوا بنا:

- أيها السيئين، أيها المهاجرين المدنسين هل جئتم إلينا مرة أخرى لسرقتنا، بلا شك أنتم لصوص أليس كذلك؟

لم يدعونا نتقدم خطوة واحدة أو نتحدث بشيء، وإنما بادروا إلى ضربنا بالعصي حتى تعالت أصوات صياحهم ونباح الكلاب، وعلى إثر ذلك خرج بعض الرجال الكبار وقاموا بردع هؤلاء الأولاد وتوجهوا إلينا بالأسئلة والاستفسار:

- من أنتما ومن أين أتيتما يا ترى؟

وكنت قد أخبرت أختي خاتون بأنني سأقول لهم حقيقة أمرنا وهذا ما فعلته:

- لقد نجونا من المجزرة والمذبحة التي حدثت في الأيام الماضية وكما ترون رجلي مصابة بأربعة مواضع، قتل الجميع وبقيت وأختي فقط على قيد الحياة ردَّ عليَّ أحد الرجال:

- يا له من أمر عجيب! غير معقول ما أسمعه أتقولين الصدق؟ وكيف بقيتما على قيد الحياة لمدة خمسة وعشرين يوماً في تلك الحفرة كيف لم يقتلكما العطش ألم تهاجمكما الكلاب البرية كيف لم تنهشكما؟!!

ثم عقَّب آخر على الكلام:

- إن الله نجاهما وأطال بعمرهما وبما أنها كانت إرادته ومشيئته في ذلك فكيف للعباد أن تتجرأ على إنهاء حياة إنسان شاء لها الحياة؟!

غادر الرجال وبقيت وأختي وحيدتين في القرية نتجول بين البيوت نحمل على ظهرنا أوجاعاً وألماً وحيرة من مجهول لا تدرك خوافيه، ثم ظهرت لنا امرأة اقتربت منا وحدثتنا وأخبرتنا بأن هنالك "تنُّور" بإمكاننا الحصول على الخبز منه، ثم نظرت إلى رجلي وقالت: إن الالتهابات والتقرحات مستفحلة في رجلك يجب معالجتها.

في تلك الليلة كان الألم يجور عليَّ ويتجاوز حدَّ احتمالي له، لم أكن أستطيع الوقوف أو المشي فكيف لي أن أنام وأرقد كان من الضروري إجراء علاج عاجل لها وإخراج الرصاصات كي تُشفى وأتعافى.

وحتى أختي خاتون لم تكن قادرة على النوم وكانت تقول لي في تلك الليلة:

- لا أستطيع النوم بسبب صوتك. فأردُّ عليها:

- ليت الله يأخذ روحي فترتاحي، اذهبي وأحضري لي الماء.

- لا أستطيع جلب الماء فالكلاب كثيرة هنا..

مكثنا على هذي الحال حتى الصباح حيث رأينا امرأة تقوم بإعداد التنور لإشعال النار للخبز حين رأتنا تذمرت وبادرت إلى السباب والشتائم:

- انهضوا واذهبوا بعيداً عن هنا أيها القذرين، كيف لهم بألا يقتلوكم لقد أصبحتم وبالاً علينا ثم اقتربت امرأة أخرى وقالت:

- ما هذا!! هل هذا المكان محطة استراحة لكم هل هو خان لتناموا فيه؟!

ثم رجوت تلك المرأة أن تعطي أختي كأس ماء من بيتها لأنني كنت أكاد أموت عطشاً:

- يا خالة إني جريحة وجروحي عميقة وأحتاج الماء.

وعلى مضضٍ ردت عليَّ:

- حسناً سآتيك بالماء بنفسي لا داعي لأن تذهب معي أختك.

ثم أتتني تلك المرأة بالماء وشربت كثيراً وبعد دقائق قليلة بدأت أتقيأ حزنت أختي لأجلي:

- لم تقيأت يا أختي؟

- لأني شربت كمية كبيرة من الماء ومعدتي فارغة هل بإمكانك جلب قطعة خبز لي من أحد البيوت؟

- ألم أقل لك الكلاب كثيرة هنا.. أخشى أن تهاجمني وتطاردني وتعضني؟

في أثناء حديثنا اقترب منا ولدان وكانا ينظران إلينا نظرات استغراب وعجب ما أثار حيرتنا ودهشتنا فمددت يدي إليهما وقلت:

- أليس بإمكانكما أن تجلبا لي قطعة من الخبز؟ أجاب أحدهما:

- بلى.

وعلى الفور ركض غاب قليلاً وعاد ببعض الخبز اليابس الذي كان قاسياً ولا يمكن تطريته إلا بالماء وهو غير موجود.

كانت أمامنا تلك المرأة تشعل الحطب في التنور، فاقتربت وأختي منها بدأت بخبز العجين بصمت وسكون، لم تحدثنا كل ما فعلته أنها قامت بإعطائنا قطعاً من الخبز القليل الاستواء والذي كان يسقط في التنور.

بعد أن أكلنا الخبز شعرت بالنور يعود إلى عيني مصحوباً بالألم المتجدد في رجلي والذي كان يزداد ولم أستطع مقاومة لهيبه.

ثم اقتربت منا بعض النسوة كنَّ يتحدثن فيما بينهنَّ وتقول إحداهن:

- من تستطيع إلجاء هاتين البنتين في منزلها فتقومان بخدمة البيت ورعاية أموره؟

وكانت إحداهن تقول:

- "فرسي" هيا اذهبي واصحبيهما إلى البيت لتقوما بخدمتك ورعاية الأولاد. ثم اقتربت فرسي منا وقالت:

- من أنتما ومن أين أتيتما؟ فأجبتها:

- نحن من "پاسور" إننا پاسوريون.

- لكن ما أعرفه أن جميع كباركم وأفراد عوائلكم قد قتلوا أليس كذلك؟

- بلى. لم يُبقوا على أحد. نظرت فرسي إلى رجلي وقالت:

- أووف.. إنها جراح بالغة ستعذبك كثيراً. انتظراني هنا حتى أعود إليكما.

- حسناً نحن بانتظارك.

ومضت فرسي ثم عادت بعد قليل مع رجل ذي لحية وقالت لي:

- هذا الرجل سيعالج جراحك لتشفى.

نظر الرجل العجوز والذي يبدو أنه كان طبيباً في القرية وقال:

- لا تخافي يا بنتي ستشفى جراحك هذه بإذن الله.

ثم اصطحبنا العجوز إلى بيته وبدأ يعالج رجلي بالأدوية وكان على فرسي أن تعود إلى بيتها فقالت للعجوز قبل ذهابها:

- بعد شفاء جروح هذه الفتاة أرسلها وأختها إلى بيتي فقبَّلتُ يد فرسي وقلت لها:

- سنأتي إلى بيتك وسنكون أولاداً لك، أنا وأختي يتيمتان بِتنا بلا أب ولا أم بعد المجزرة.

- لا تكترثي ولا تفكري كثيراً أنا هنا إلى جانبكما.

برغم هذا الترحيب والعون فقد انتابتني بعض الهواجس ربما لأننا فقدتنا ثقتنا بالجميع وبكل شيء،

وتحدثت مع أختي بأمر من أنني أخشى أن يكون هؤلاء ينصبون لنا فخاً ما ويخدعوننا.

بعد مرور عدة أيام أخبر الرجل فيرسي بأنني تعافيت بعلاجاته من القروح والالتهابات وأن الحمد لله لسلامة عظامي من أية إصابة، إلا أن الرصاصات الأربع قد اخترقت اللحم بعمق ولا تزال فيه وأخبرني هذا العجوز بأنني تعافيت من الالتهابات والقروح وأنني أستطيع من الآن فصاعداً المشي.

عدت وأختي إلى بيت فرسي وانتشر في القرية خبر أن فرسي قد احتضنت ابنتين أرمنيتين في بيتها تقوم برعايتهما وتربيتهما.

وعلى إثر انتشار الخبر امتعض أهالي القرية وجاء بعض رجالها ونسائها إلى بيت الرجل العجوز حاملين سخطهم ولومهم له لعلاجه لي قال له أحدهم:

- لماذا قمت بعلاج جراح الفتاة؟؟ كان عليك أن تتركها لتموت فنتخلص منها ومن بلاء الأرمن.

فكان ردُّ الشيخ أصغوا إلى ما سأقوله:

- يقول قرآننا الكريم: "بسم الله الرَّحمن الرَّحيم والحمد لله ربِّ العالمين" وهذا معناه أن الله لجميع البشر وأنه يحب الأقوام والشعوب جمعاء، وعندما يسترك الله

ويحميك فهذا ليس حرام لكن السرقة والقتل حرام، لقد قُتلوا أولئك الناس وشاء الله أن ينجي من تلك المذبحة هاتين الفتاتين فقط... وإذا كانت إرادة الله أن ينجيهما حصراً من الموت الذي وقع على الجميع ولم يأخذ روحيهما، فكيف للبشر وبأي حق أن يخالفوا مشيئته وإرادته ويسحقوا أرواحاً حماها الله؟!!

فلا تكثروا من الكلام غير المعقول وغير المنطقي. لم يكترث لأمرهم وأتى الشيخ بمرهم وقام بغسل وتعقيم جروحي وتضميدها وكانت أختي خاتون لا تزال في منزل فرسي.

وبعد أسبوع أتاني بعصا لتعينني على المشي:

- استعيني بهذه العصا ستساعدك وستذهبين إلى منزل فرسي لتكوني إلى جانب أختك لكن بعد أن تتعافى جراحك تماماً.

كانت فرسي تتردد على منزل العجوز لاصطحابي إلى منزلها، وذات يوم حين أتت لأخذي قال لها الشيخ:

- إلى أين تريدين أخذ آزنيف رجلها لم تتعافَ بعد لتقوم بأي عمل في منزلك، حين تتحسن بشكل جيد بإمكانك أخذها.

كانت تردُّ موجِّهة كلامها لي:

- أختكِ صغيرة وغير قادرة على رعاية أمور البيت والعناية بأولادي، إنها تترك الباب مفتوحاً وتهرب إلى الخارج وأنت أكبر منها ومن الأنسب أن تقومي بتربية ورعاية أولادي.

مر شهران ونحن على هذه الحال وكانت جراحي قد تعافت وعدت إلى منزل فرسي، وكنت أقوم بأعمالي وأشغالي في منزلها بصورة تروق لها، فكانت تذهب إلى عملها وتعتمد عليَّ في إنجاز مهام المنزل، وكنت قادرة على تأمين لقمة عيشي حتى أنها راضية عني وتحبني أكثر مما يكون الأمر تجاه أختي التي لم تحظَ برضا ومحبة فرسي لها، ربما لأنني كنت أكثر وعياً برغم فارق السن القليل أو أن التجربة جعلت تفكيري الواعي يسبق عمري الزمني بمراحل، الأمر الذي عزز ثقتي بنفسي كثيراً وبالتالي جعلني قادرة على حمل الأعباء والأثقال.

كان تفكيري الكبير بأختي خاتون يؤرقني ويجعلني أنسى جراحي كنت دائماً آكل ما يسندني فقط وأترك لها من الطعام.

ومع حلول فصل الشتاء أصبت بمرض صعب لم أكن أستطيع النوم لا في الليل ولا في النهار، كان تفكيري منصباً على أختي وهمها كان يثقل كاهلي وكثيراً ما

تمنيت لو أن الله أخذ روحي وأماتني فأرتاح من هذه المتاعب والهموم، ومن ضغط تفكيري كنت أحياناً أشعر بأن كل مر لم يُمتني لكن تفكيري الشائك بأختي قد يأتي بأجلي..

وفي أحد الأيام حدثتني صاحبة المنزل كانت تنظر إليَّ نظرات مفعمة بالرحمة والشفقة:

- ابنتي آزنيف كما ترين إن الغلاء والجوع والغلاء الذي حل بالناس أناخ قواهم وقدراتهم وأنهكم السعي خلف لقمة العيش، لستِ الوحيدة التي تعاني من المرض الجميع هنا مرضى والموت يقبض أرواح الكثير من الناس، ألمي كبير عليكما ولو كانت الأحوال يسيرة لعجز لساني عن قول ما أقوله لكن الظروف تضطرني لتوضيح الوضع.

في الحقيقة يا بنتي البيت شبه خالٍ من الطعام والمؤونة ومن الآن فصاعداً لن أستطيع التكفل بمعيشتكما وبالكاد سأتمكن من تأمين لقمة عيش أطفالي، أشفق عليكما لكن لا حيلة في اليد ولا مخرج مما أنا فيه مع بقائكما، لكني سأدلك على حلٍ ومنقذ علَّه يحمل لكما الخير والفائدة، انصتي إلى كلامي جيداً يا ابنتي:

بالقرب من هنا طاحونة "مطحنة" وهي لـ صادق بك ويعمل فيها بعض الأرمن أحدهم اسمه "هاگوب" والآخر "ميگرو" وثالث "تانو" وهناك بإمكانكما العمل وتأمين لقمة عيشكم ويمكنك أكل ما تجدونه هناك سواء أكان الذرة أو القمح أو الخبز اليابس والعيش في المكان ذاته وإلا فإنكما ستموتان من الجوع.

كانت محقة فيما قالته بدلالة أني لم أُشفَ جيداً، إذا لا غذاء يقوي جسدي الضعيف، لقد اعتصر وضعنا قلبها وتألمت لأجلنا كأم حنونة، حتى أنها لم تتمالك نفسها وبكت لأن الظروف اضطرتها إلى دفعنا إلى هذه المصير.

كنت أتساءل في نفسي يا لله.. ما الذنب الذي اقترفناه حتى يحل بنا ما حلَّ ولا يزال في سير عقابه نحو الأسوأ! وكنت أخشى أن يلـمَّ بي مكروه فتبقى أختي الصغيرة وحيدة ماذا سيحلُّ بها وهي غير قادرة على القيام بأي شيء أو أداء أي عمل، لقد كانت نقطة ضعفي المؤرقة إلى جانب نقاط الضعف الكثيرة التي تتلبسني.

لزمتُ الفراش لمدة شهر كامل ويوماً بعد يوم يزداد الوهن وتخور قواي وتتراجع همتي في التوجه إلى مكان جديد لا دراية لي به، إلا أنني قررت أن أتغلب على هذا

الضعف وأحسم أمري وأذهب إلى المطحنة فأستجلي أجواءها وطبيعة العمل فيها وهذا ما فعلته.

توجهت إليها بخطوات بطيئة متثاقلة وجلست أرتاح قرب أحد البيوت، وبعد لحظات فتح صاحب البيت الباب وحين رآنا طفق ينهرنا ويزجرنا بلهجة قاسية:

- انفضوا من هنا، هيا بسرعة مهاجرون وقادمون لسرقتنا ونهبنا أليس كذلك؟؟ هيا ابتعدوا هيا.

- يا خالي لسنا بمهاجرين نحن من الأرمن.

- كفاكما كذباً لماذا تدعون ذلك؟

على إثر صراخ الرجل خرج رجل اسمه ميكرو، قال:

- ماذا يجري؟ ما الذي حدث؟

أجابه الرجل:

- انظر إليهم.. ضيوفنا وزوارنا..

ثم توجه ميكرو إليَّ بالسؤال:

- من أنتما؟ ومن أين قدمتما؟ ماهي وجهتكما إلى أين أنتما ذاهبتان؟

- إننا أرمن جئنا من قرية "سامسون".

- حسناً إذن امكثا في تلك الزاوية ريثما يفرغ المكان من الناس.

ومع حلول المساء غادر أصحاب القمح والطحين وتمت مناداتي وأختي للدخول فدخلنا وجلسنا وأخذ الموجودون يطرحون علينا أسئلتهم الاستيضاحية بخصوص أمر تواجدنا في القرية سأل أحدهم:

- عليكم بقول الحقيقة أأنتم مسلمون أم أرمن؟

- أقسم لك بالسيد المسيح بأننا أرمن، لقد نجونا من تلك المجزرة ونجونا بين القتلى والجثث ودليلي على كلامي الجروح التي لازالت في قدمي، ذقنا بما فوق احتمالنا من العذاب والألم ولازلنا حياتنا أشبه بالموت اليومي البطيء نتأرجح بينهما ولا تغادر أرواحنا، ليت الله قبض أرواحنا وأراحنا من مرار هذه الحياة القاسية ليتنا متنا بين هؤلاء الأطفال..

وأخذتُ أبكي بألم وحرقة مما نعانيه أما هؤلاء الرجال فإنهم عندما سمعوا كلامي وأصغوا إلى نبرة كلماتي شعروا بمدى صدقي بكل ما نطقته وغصت عيونهم بالدموع، لقد كسرهم وجدانهم ومشاعرهم ما قلته وأبدوا تعاطفاً كبيراً مع مأساتنا ثم سألني ميكرو:

- ما اسمكِ واسم أختك؟

- أنا آزنيف وأختي خاتون.

- لا بـأس انظـرا لابـد مـن تغييـر اسـميكما مـن الآن فصاعداً أنتِ "إقبال" وأختك الصغيرة "خاتو".

ثم سألوني عن عائلتي التي فقدتها بالكامل وأخبرتهم بأن اسم والدي "بوكوس" وكان يقال له "بوكوس توخو" واسم أمي "لوسيك" وكان يقال لها "لوسو" أي الضوء، ومن ثم سألني:

- لم تخبريني من أي مكان قدمتما؟

- من پاسور..

حين أجبته بذلك زفر زفرة عميقة على ما حلَّ بها وتنهد تنهيدة متشظية بألم حارق ثم قال:

- پاسور! آخ يا پاسور.. حملتِ بمفردك ذلك الجبل الشامخ من الألم الوجع.. ثم صاح منادياً أحدهم:

- هاكوب هاكوب تعال وأصغِ، إن قصة الأرمن طويلة الأمـد، اذهـب وأحضـر الطعـام لـلأولاد إنهـم بـلا شـك جائعون.

ثـم سـارع هـاكوب إلـى إحضـار الطحـين شـرع يعجـن ويخبز وأعدَّ لنا خبزاً ساحناً فأكلنا حتى شبعنا، وشكرنا الله وحمدناه لرحمته، ولأننا في تلك اللحظة شعرنا بأن عناية والدينا تساورنا وعطفهما يظللننا.

وذات يوم استيقظت خاتون من النوم في منتصف الليل وكانت تقول: أريد أمي.. أريد أن أذهب إليها.. خذوني إليها.. لقد أحرقت قلبي تلك الطفلة الصغيرة بشوقها وحنينها لدفء أمي ولهفتها لرؤية من أصبحت في عالم بعيد جداً ومن المحال لقاؤها...

تلك الطفلة لم تكن تدرك عظم المصيبة، عقلها الطفولي لم يكن يستوعب أو يتقبل بقناعةٍ تداعيات ما جرى، في تلك الليلة تحول سقف الغرفة ودفء المكان إلى غيمة هاطلة بدموعنا...

لبثنا في المطحنة على هذا المنوال لمدة شهرين إلى ثلاثة أشهر، نأكل ونشرب وبصحة جيدة مع عنايتهم لنا بتأمين حوائجنا، حتى أنهم كانوا يصطحبوننا للتجول معهم في القرية لكن عيون الجواسيس التي كانت ترصد تحركات الجميع كانت كثيرة ولم نكن نعلم بذلك، كل ما كنا نعرفه هو أننا عثرنا أخيراً على ملاذٍ آمن دافئ رحمةً ورأفةً من الله بعد رحلة عذاب طويلة.

إلا أن الشعور بالراحة والاستقرار لم يدُم أيضاً هنا، فهنالك من ذهب إلى صادق بك صاحب المطحنة وأبلغه بأن عماله قد احتضنوا فتاتين من الأرمن دون علمه ويقومون بإطعامهما على حسابه الشخصي ودون إعلامه

وإذنه، فثار غضباً وأتى إلى المطحنة جمعهم وبدأ يصب شظايا غيظه وسخطه عليهم:

- جميل ما سمعته..!! انظروا لقد أنقذتكم من المذبحة وأتيت بكم إلى هنا، والآن أراكم تقومون باحتواء ورعاية الأيتام والإنفاق عليهم من مالي؟! أتريدون أن أقتلكم ألا تعلمون أن عملكم هذا سيودي بي إلى التهلكة؟!

في المساء عدنا إلى المطحنة كانت وجوه العمال شاحبة مكفهرة تترقب أمراً لا خير فيه كان ميكرو موجوداً معهم قال لي:

- أرأيتم ما جرى؟ ألم تروا غضب صاحب المطحنة وتسمعوا ما قاله؟ إنه يريد قتلنا.

ثم اقترح علينا ناتو أحد العمال أن نتجه إلى مخبز آخر في قرية ليست ببعيدة:

- هنالك فرن خبز في فارقين لرجل أرمني يدعى صاحبه بـ كريكور أخبروه بقصتكما ووضعكما وعلى الغالب سيكون مكاناً مناسباً لكما أكثر مما هو الحال هنا.

اتجهنا إلى فارقين التي لم يكن لدنيا أدنى معرفة فيها، ولم يرافقنا أحد من رجال المطحنة إليها أو يدلنا عليها، كل ما تحدثوا به أن فارقين ليست بعيدة يمكن الوصول

إليها من خلال مشي لساعات وأن نغادر المكان ومن ثم نسأل من نصادفه عن جهة فارقين.

وهذا ما قمنا به غادرنا القرية واتجهنا مهتدين بسؤال الناس إلى المدينة واستمررنا بالمشي حتى المساء حتى بلغناها.

قلت لأختي خاتون:

- والآن.. إلى أين سنذهب؟! أهي صغيرة؟! وهل سيكون فيها مخبز واحد؟ على اتساعها يبدو أن هنالك العديد من الأفران والمخابز هنا، أنَّى لنا أن نهتدي إلى فرن كريكور..؟!

في طريق سيرنا في ذلك المكان المجول كلياً وقع نظرنا على دجاجة ميتة في الأرض فحملناها معنا ونتفناها ونوينا أخذها إلى الفرن لشوائها وأكلها، وفي الطريق واجهَنا ولد من أولاد المهاجرين وقام بخطف الدجاجة من يدي وولَّى هارباً.

استأنفنا طريقنا إلى مخبز كريكور، المحزن أنه لم يُعِرنا أحدٌ في الطريق أي اهتمام أو يردّ على أسئلتنا أو يدلنا على المخبز، لقد تجاهلنا جميع المارة وكأنما لسنا موجودتين ولا مسموعتَي الصوت.

كان الوقت ليلاً ولم نستطع أن نستدل مكان المخبز ونحن لا نزال نجوب الشوارع والطرقات بلا أية بارقة نور، فلذنا إلى زاوية مظلمة واستلقينا على الأرض ونمنا حتى الصباح.

في الصباح استيقظنا فهممنا بالمشي لاستدلال المخبز وسألت أحد المارة:

- من فضلك أين يكون فرن كريكور؟

- امشيا في هذا الشارع حتى آخره وفي نهايته ستجدان من يدلكما كيف تنعطفان إلى شارع المخبز.

وصلنا حيث دلنا وهناك سألنا الناس فاتجهنا نحو الفرن ووصلنا بابه وجلسنا عنده، ولازدحام المكان بالناس الذين يشترون الخبز لم يكن بمقدورنا أن ندخل أو نلتقي بصاحب الفرن.

مضت ساعات طوال حتى قلَّ ازدحام المكان وكنا ننتظر مقابلة صاحب المخبز بوجه يغمره البؤس والشقاء.

وأخيراً تمكنت من الدخول استقبلني رجل طويل القامة، حييته وقلت:

- هل أنت العم كريكور؟

- نعم أنا ماذا تريدين؟

- هل تعرف "ناتو" الذي يعمل في مطحنة صادق بك؟

- نعم أعرفه.

- إن ناتو يرسل إليك بتحياته وسلامه وقد أرسلنا إليك.

- هذا جيد لكن من أين أتتما وأين كنتما؟

- نحن من پاسور إننا پاسوريون، وقدمنا إلى هنا من قرية سامسون، قصتي طويلة جداً لا يمكنني شرحها الآن لك لكني سأوجزها بأننا هربنا من پاسور التي تعرف ما حلَّ بها من ويلات وقد نجونا بأعجوبة معجزة إلهية.

- أخبريني ماذا حل بحزب "سوسا" أو الفدائيين الأرمن؟

- لقد قتلوا جميعاً أيها العم كريكور لم يبق أيٌّ منهم على قيد الحياة.

عند ذلك صاح كريكور بصوت عالٍ:

- آفي، أحضر الخبز إلى هنا لتأكل هاتان الفتاتان وتستعيدا قواهما إنهما جائعتان.

بعد أن أكلنا طلب منا كريكور ألا نتوجه إلى مكان آخر ونبقى في المخبز، غادر المخبز وتركنا فيه، وفي الليل عاد إلينا ليتفقد وضعنا وقال:

- ما نزِل بالأرمن من بلاء لم يره أي شعب من شعوب الأرض والظلم والإجرام الذي حلَّ بنا نحن

الأرمن لم يشهده شعب والمصيبة أنه حتى الله وملائكته تخلوا عنا ولم يشفعوا لنا أو يرحمونا، لقد أشاحوا بوجوههم عنا وتركونا نلقى مصيرنا الأسود بمفردنا بصحبة جهنم، والتزموا الصمت بعيداً عن استغاثاتنا وعويلنا وصرخات جراحنا النازفة ومن بقي حياً رافقه العذاب والجوع والأمراض..!!

آزنيف في الصباح بإمكانك التجول في القرية وأنت ممسكة بيد أختك الصغيرة واحذرا أن تتوها عن المكان، ففي النهار جنود العثمانيين يدأبون في البحث عن الأرمن وإلقاء القبض عليهم لقتلهم.

في اليوم التالي خرجت وأختي وأمسكت بيدها كما أوصاني كريكور تجولنا في القرية لساعات طويلة ثم عدنا إلى العم كريكور.

نادانا العم وقال:

- آزنيف ينبغي عليكما العمل، وأما فيما يخص أختك الصغيرة فلا عليك سنجد لها عملاً مناسباً تستطيع القيام به.

مضت أيام ثم سمعت بأن مدير مدرسة القرية لديه طفل يتعلم المشي حديثاً ويحتاج مربية تقوم برعايته والاهتمام به بحكم عمل زوجته كمديرة، فسارعت إليهم

وأخبرتهم بأني قادرة على تحمل مسؤوليته ورعايته ووافقوا على ذلك.

كانت هذه العائلة غنية جداً وعلى مستوى عالٍ من الثراء ويسر الحال وهي برغم الغلاء والمجاعة المتفشيان في المدينة في تلك السنوات الشحيحة فإنها تعيش رفاهية الحياة على جميع الأصعدة.

في ذلك المكان شعرت بشيء من الراحة لسعة عيش تلك الأسرة كنت آكل وأشرب دون أن يتعرض لي أي أحد بأية إساءة إلا أن القلق لم يكن يفارقني بشأن أختي الصغيرة، وتفكيري كان دائماً منصباً على كيفية حالها ولا أستطيع أن أقول أننا أختان حسبما وصاني تريكور، حتى أنني في أول يوم لوجودي معهم سُألت فيما إن كان لي أخوة وأخوات إلا أنني بينت للجميع أنني وحيدة، أنني غصن مقتطع من شجرة احترقت وماتت.

لكنني حينما كنت أذهب إلى عملي في الفرن كنت ألتقي بأختي خاتون، وكنت آتيها بالطعام من المنزل الذي أقيم فيه وبرغيف خبز من الفرن الذي كنت أعمل فيه ثم أعود إلى المنزل.

مضت أيام على هذه الحال ثم أخبرني العم كريكور بأن هنالك سيدة تبحث عمن تقوم برعاية أولادها:

- آزنيف السيدة حليمة تحتاج مربية تقوم برعاية أطفالها ما رأيك؟

- بإمكاننا إرسال أختي خاتون إليها عساها تقوم بالمهام المترتبة عليها.

- حسناً هذا جيد.

في اليوم التالي أخذ العم كريكور أختي إلى بيت حليمة، شعرت بالاطمئنان لعمل أختي الجديد وهدأت أعصابي التي لم تكن تنفك عن التوتر، وشعرت بأن هماً كبيراً كان جاثماً وقد أُزيح عن صدري شعرت بسكينة تعود إليَّ.

فيما بعد وردتني معلومات حول حليمة بأنها تعيش بلا زوج مع ثلاثة أطفال وأنها تذهب إلى عملها وتترك أطفالها مع خاتون لتقوم بتربيتهم والعناية بهم، وفي أحيان لم تكن تلك السيدة تعود إلى البيت فتلقي مسؤولية متابعة الأطفال لأختي لوقت طويل.

آلمني حال أختي لقد كانت تلك المسؤولية صعبة لتقوم بها طفلة صغيرة كخاتون التي هي بعمر تحتاج من يرعاها فكيف لطفلة أن تربي أطفال!

استمرت لفترة من الزمن على هذي الحال حتى صادفت أختي في أحد الأيام في الفرن، لقد كانت هزيلة

ومتعبة ومنهكة كانت ملامح الموت الشاحبة مرتسمة على وجهها قلت لها:

- ما بك يا أختي؟ ماذا أصابك؟ لمَ أركِ بهذا الانطفاء واليباس! ماذا يجري معك؟!

انهمرت دموع أختي وشرعت تشكو متاعبها في منزل حليمة:

- أنا متعبة هناك إنها تلقي على كاهلي مسؤولية العناية بأطفالها لوقت طويل وعلاوة على ذلك فإنها ترسلني إلى البراري لجلب الأعشاب لها، وكثيراً ما يحدث أن أبقى جائعة في منزلها لوقت طويل وتنهار قواي فلا أقوى على الحركة والمشي.

عندما سمعت شكوى أختي أحسست بأنها رصاصات مصوبة إلى رأسي وشعرت بأن الدنيا تضيق وتضيق بي، وأن رحلة عذابنا ممتدة عبر طريق طويل مجهول النهاية، اختنقت بكلمات مواساتي لها وبكيت لأجلها وأشفقت على طفولتها المسحوقة ومما كانت تعانيه عند تلك المرأة، ثم قلت لها تعالي معي وإن صادفنا أحداً وسألك من تكونين بالنسبة لي إياكِ أن تقولي أنني أختك! فخلف بيتنا غرفة مهجورة ستمكثين فيها الليلة وسآتيك بالطعام، وحين تريدين رؤيتي تأتيني عندما يحل الظلام أطعمك

ومن ثم تعودين إلى تلك الغرفة وتختبئين فيها، واحذري أن يراك أحد فهنالك الكثير من المهاجرين ممن يأكلون لحم البشر في هذا المكان.

ثم عدت إلى البيت وقمت بتحضير الخبز والجبن والسكر والزبيب ووضعتها في كيس وكنت أترقب حلول الظلام لكي آخذ تلك الأشياء لأختي وأراها فأطمئن عليها.

مع حلول المساء هممت بالذهاب إليها وأعطيتها كيس المأكولات وعندما رأت تلك الأشياء سحبتها من يدي بسرعة وكأنما لم ترَ الطعام مطلقاً، وبدأت تأكل بنهم حتى أنها أكلت كل ما جلبته في غضون دقائق قليلة.

لقد كانت جائعة جداً في ذلك المنزل ومرهقة من حمل أعباء تتطلب مالا طاقة لها به، قبل أن أتركها في الغرفة أوصيتها بالنوم الجيد وأن تتجول في المدينة فيما لو شعرت بالضجر والملل، وأن تحذر رؤية أو سؤال أحدٍ لها من الناس.

وأمضينا سنة كاملة على هذا الحال وتحسنت خاتون باتت أقوى مما كانت وزاد وزنها وأصبحت فتاة جميلة ورائعة وكان الغلاء قد انخفض وتوفرت الأغذية بما يتيح الناس الحصول عليها بشكل جيد.

كنت أسمع أن هاكوب يسأل كريكور عن خاتون ومكان تواجدها بشكل دائم، وكان يجيبه كريكور بأنه يعرف مكان آزنيف، أما خاتون فلا ويخبره بأن خاتون تأتي إلى هنا أحياناً ثم تختفي.

ثم أتوا إليَّ وسألوني عن أختي: وتحدثوا عن غايتهم من السؤال عنها بأنهم يريدون خطبة خاتون لـ هاكوب، وحين سمعت خاتون بذلك قالت: أليس هاكوب ذلك الرجل الذي طردنا من المطحنة..؟

وكانت زوجة شقيق هاكوب قد قالت لي: عوضاً عن أن تتزوج خاتون من شخص مسلم لمَ لا تتزوج من رجل أرمني من أبناء دينها، سأصحب خاتون معي إلى البيت وحين تكبر ويحين أوان زواجها بإمكاننا تزويجهما، وأنتِ أيضاً تعالي إلى بيتنا إلى أن يحين وقت نصيبكِ، بيتنا واسع جداً ويتسع بنا وإياكما.

بعد مرور عام من الزمن جرى الحديث في مطحنة صادق بك حول أمر تقدم ديكران لخطبتي وطلبه الزواج فوافقت على الزواج منه، من شاب شأنه شأني أن نجت طفولتنا معاً من قبضة العثمانيين وآلة القتل وعشنا حياة اليتم والتشرد والحرمان.. وتزوجنا ووهبنا الله الأطفال.

في منتهى سردي لقصتي الأليمة لابد لي من أن أبين لكل من يمر من هنا أو عند محطة من محطات إبادة الأرمن: أني أصررت على توثيق ما عشته كتجربة حية مميتة شأني شأن الكثيرين من الأرمن إلا أنهم قتلوا وكتبت لي مواصلة الحياة في دروب شائكة بصور المعاناة المختلفة، من رؤية شبح الموت يقتحم ديارنا ورؤية الأطفال والكبار والنساء والشيوخ وهم يتساقطون كأوراق خريف مدمية على أراضيهم، أو مشاهد أصوات النساء الحوامل حين كانت تضرب بطونهن بالسيوف وتُخرَج الأجنة وترمى بعيداً على الأرض...

لن أنسى تلك القيود والسلاسل التي وثقوا بها أيادينا وأقدامنا نحن الأطفال وسيرونا عبر البراري والصحارى والوديان ليلقوا بنا في حفرة كبيرة في الوادي ومن ثم يمطروننا بالرصاص.. لن أنسى شريط الإهانات والإذلال والسِّباب والشتائم المكرَّر في كل بقعة ومحطة نزلنا فيها وعزة نفوسنا الأبية تأبى المذلة والمهانة..

كيف لي أن أنسى ما بدر عن العثمانيين من تصرفات فاحشة مخزية لا أخلاقية أمامنا دون خجل، وكنا نغمض أعيننا عن رؤية ما يجرح طفولتنا النقية وحيائي يردعني عن ذكرها ويجعلني أشعر بالخجل لمجرد تذكرها.. هل

يمكنني نسيان سلسلة القتل والذبح للرجال والشباب المرفقة بالنهب والسرقة والتدمير وتشريد الأطفال ودفعهم إلى مهاوي الإذلال..

بل كيف لي أن أنسى مرحلة عمرية طفولية ليست بقصيرة حييتُ فيها حياة مرادفة للموت وكنتُ فيها أموت كل يوم ألف مرة..

ليتني أنسى فلا ترافقني تلك الصور ككوابيس تتراءى لي في يقظتي ونومي..

إنني أدعو الله.. لأن ينتقم لأرواح الأرمن الأبرياء من هؤلاء السفاحين الذين تفننوا في تنفيذ صور تلك المذابح والمجازر.

اقرؤوا قصتي فهي تمثل مئات الألوف من الأرمن وذكِّروا أولادكم والأجيال القادمة بمعاناة وجراحات جدودهم، ذكِّروهم بهذا التاريخ الدموي الذي سطَّرته أيادي وفرمانات الدولة العثمانية لإفناء الشعب الأرمني وإبادته.

الفنان المتألق آرام ديكران كان ثمرة تلك الرحلة الشاقة من المآسي، الثمرة التي تفتحت على الحياة وهي تحمل في تلافيفها موهبة الفن الإبداعية الموروثة، فكانت آلته الموسيقية المفضلة "الجمبش" التي رافقته في

مسـيرته الفنيـة، أثـرى الفـن الكـردي بأغانيـه وألحانـه وموسيقاه وترك بصمته التي لا تمحى فيه، إذ غنى باللغة الكرديـة والعربيـة والأرمنيـة، وكـان قـد أسـس أول فرقـة موسـيقية أرمنيـة كرديـة وغنـى لكبـار الشـعراء ولـه مئـات الأغاني، الحب ملهم والطبيعة ملهمة ويبقى الحزن أكبر ملهـم وإن أتـت الألحـان علـى مـا يتناغم مـع القلـب، إنمـا تستل عـذوبتها وبريقهـا مـن تلـك الدمعـة الغـائرة فـي عمـق جذور المنبت.

موقف الإيزيديين من الأرمن في زمن المجازر

سركيس كيفو الأرمني

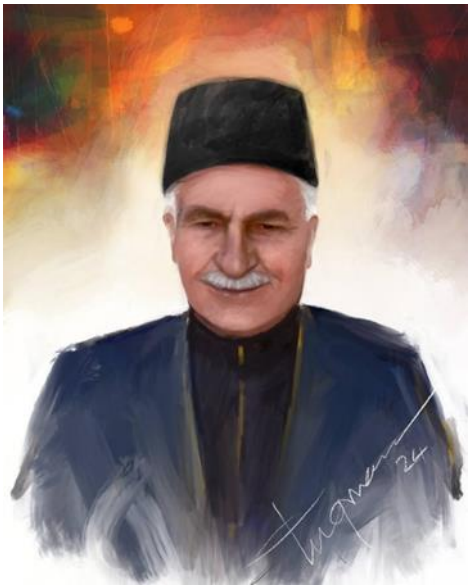

لم يكن والد آرام دكران وآزنيف الأرمنيين الوحيدَين اللذين عاشا مسيرة الشقاء والتشرد والناجيين من الحملات العثمانية المدججة بالعنف والإرهاب وجمعهما القدر بفتيات من الأرمن تكنَّ لهم زوجات، بل

هنالك الكثير ممن عايشوا تلك التجربة القاسية في زمن إبادة الأرمن وتحدثوا عنها وكان سركيس أحدهم، وقد سرد مجريات قصته آنذاك وتحدث عن تفاصيلها المؤلمة.

سركيس ذلك الطفل الذي كان يعيش في كنف أسرته في حضن أمه وعضد والده وحبورهما بأطفالهما، يتنفس الحياة من حب والديه له وثقتهما به وأملهما الكبير به كونه أكبرهم بأن يكون شخصاً متميزاً في الحياة يُعتمد عليه، ويستمد طاقة الفرح من ضحكات إخوته ووجوههم المشرقة بالدفء والمحبة.

ذلك الطفل لم يكن يعلم أن القدر يخبّئ له مُستقبلاً بنوايا أكبر وأعظم من أن يستوعبها تفكيره الحالم بكل جميل.. وأن وجهاً متجهماً آخر له سيظهر في ليلة وضحايا ينسف وجهه المشرق وقد كان في قلب الأسرة يتنعم الحنان والافتداء والاهتمام، لم يكن يتخيل أن القدر من الممكن أن يبدو بهذا القدر لقبح الوجه حدَّ اشتهاء الموت وعدم رؤيته..

كان يرسم أحلاماً وردية بحكم سعة أفقه وذكائه وتميزه في طاقاته وقدراته، إلا أن الأقدار شاءت له أن يوظفها في هكذا تجربة مريرة يكابد فيها قسوة المحنة،

ليخرج فجأة من سركيس الطفل سركيس المجابه لشتى التحديات التي لا يحتملها جبل، يبدو أنه كان هنالك رجل كامن في أعمق طفولته لكنه نضج بسرعة على تنور المصيبة المستعرة والوجع وقبل أوانه.

ثمة طاقات تكون كامنة في داخل الإنسان لا تظهر إلا إن أتيحت لها ظروف ومواقف الانبثاق والظهور، فتثبت له أنه قادر على فعل مالم يكن بحسبانه، إنها التجارب القاسية التي تقتحم لحظاته بطريقة فجائية فتُخرج تلك الطاقات وتجعلها تظهر ظهوراً صادماً مثيراً للشدَه.

لايزال سركيس يتذكر تلك القافلة وهي تمشي وتحمل على متنها أوجاعاً وحرقة فقدان لمن كانوا سبباً أولاً وأخيراً في الرغبة بالحياة.. إنهم الأهل، الأبوان والأخوة والأقارب والأصدقاء والجيران وكل من كانوا يسبغون على الحياة ألوان الأمل والبهجة.

لقد كانوا يحملون أحلامهم النضرة التي سرعان ما شحبت وتيبست في أول ربيعها عندما حُمِّلت بخذلانها وحسراتها وطردها وهروبها من الديار تساقطت، فكيف يعقب الخريف بعد الربيع...

القافة تمر... لكن شريط الذكريات القريبة الجميلة يمر معها ويرافقها أيضاً، يهدهد آلام من فيها بما أمكن،

رائحة خبز أم سركيس تجاري خط سير القافلة وتفوح وخياله يلتهم خبز أمه الشهي الناضج على التنور في الصباح المبكر وواقعه يقول إنه لثلاثة أيام في طريق التشرد لم يبتلع لقمة خبز أو طعام سوى الأعشاب البرية.

الوسادة الناعمة الطرية التي كان يغفو عليها أُرغمت على اعتزال الحنان عنوة، لتنوب الحجارة والصخور منابها.

كيف لعقله أن يستوعب فكرة مقتل جميع أفراد أسرته أمام عينيه وأقربائه ويبقى وحيداً يسير بلا بوصلة هداية أو عُرف بالآتي، يصادقه الخوف والرعب والقلق الدائم من حياة لا ترحم ما دامت لم ترحم أبويه الذين كانا مصدر قوته ومورد ثقته بنفسه، وحتى إن تمنى الموت فإنه لم يكن متاحاً وقد أتيح لما يفوق المليون من أبناء جلدته، ربما بحسب قوانين السماء لم يمتلك المؤهلات الكافية لأن يموت..

جموع الناس حوله تسير كالماشية، كالأغنام والطيور التي لا تستطيع حتى الطيران ولو استطاعت لنجت، يتجهون نحو مجهول مخيف لا ملامح ولا مؤشرات له، كل ما يتضح فيه فقط هالة كبيرة من الذعر المستوطن والخوف والقلق الدائم.

لم يكن أمامه في ذلك الطريق سوى سؤال السماء التي فقد ثقته برحابة صدرها لنجواه، وسؤال الله عن حكمته فيما جرى في قريته ومناطق الأرمن من مذابح وحشية! وحكمته في تركه وحيداً مصلوباً على العجز متكئاً على المتاهة وحافات ومهاوي الخوف..

كل ما كان بوسعه مجابهة مصيره ليس حباً بالحياة بعد فقد أهله، وإنما بفعل غريزة الحياة والبقاء المبثوثة في داخله لحظة خلقه..

يغفو في الصحارى الموحشة المزدحمة بالكائنات الحية التي تأقلمت مع قسوة الصحراء ولا يُنتظر منها إلا النهش أو العض أو السموم..!

لقد أضحت الزواحف والأفاعي والعقارب والجرذان والذئاب والضباع والكلاب مجتمعه الذي ينبغي عليه أن يتجنبه على مدار الثانية وأجزائها.

وأصوات الضواري المتوحشة تملأ المكان وتشم رائحة البشر والأرق والقلق معها مستتبان، حتى الحشرات الغريبة السامة فقد كانت كثيرة ومثيرة للتوجس.. لا استقرار ولا طمأنينة نفس، لكنه كان يتسلق الأشجار التي تبقى مبعث حب ودفء واحتضان في كافة

الظروف لدى سماعه أصوات قريبة منه فالحيوانات المؤذية كانت كثيرة في ذلك المكان...!

في هذه الصحراء القاحلة التي لم تحمل له سوى مروجات المخاوف تذكر الحياة المخضوضرة في بيت أسرته التي كان غصناً مورقاً بالحب والحيوية والتفاؤل.

تلك الصحراء المنبسطة كانت مرآة تعكس له صور جبالٍ، لقد كانت جبالاً من رؤوس هؤلاء قتلى الرجال من أبناء قريته، التي وضعها الجنود العثمانيون أكداساً متراكمة فشكلت جبلاً وكانت دماؤهم تملأ الأرض، كانت تعكس له أيضاً النساء العاريات المعلقات من أثدائهن على أغصان الشجر اللواتي كنَّ يتمنعن عن تسليم أنفسهنَّ وتدنيس كرامتهنَّ، وصور الأطفال المقطوعي الأطراف..

لم تكن تعكس تلك البيادي أي جانب مبهج للنظر كانت تعكس قبح تصحرها ويباسها من الحياة وهمجيتها، باختصار كانت تعكس ما في صميم لبِّها...

لم يكن هنالك ما يطمئن النفس ولو قليلاً بمرونة للاستمرار، فالسماء تخلت عنه والأرض كانت تنسج له المكائد وتقيم المصائد وتفكر بصمت، برويّة، بنوايا سوداء بالطريقة التي يمكن أن تبيده بها! لقد اتفق البشر

والحيوان في سعة الأرض وتضافرت قوى وطاقات الشرِّ على نصب الشراك لهؤلاء الأبرياء من أي ذنب سوى أنهم أرمن!

هذا الاختلاف في الانتماء والتوجه الديني والقومي.. كان ذريعة للإطاحة بوجودهم والنيل من اقتصادهم ودينهم ونسائهم.

لقد تحدث سركيس عن مشاهد إجرامية لا يمكن أن تُمحى من ذاكرة طفل من الممكن أن تخدش إحساسه كلمة قاسية، ذلك أن امرأة وأطفالها الثلاثة حين مات أحدهم أثناء الطريق سارعت لإنقاذ من بقوا أحياء منهم لحظة انقضاض الجنود الذين هاجموا أحد أولادها وقاموا بخنقه، ثم شعروا بوجود طفل آخر معها تحمله وتخفيه على ظهرها ما إن لمحوه حتى انهالوا عليه بالسيف، ولما وضعت أمه يديها على رأسها ورأس الطفل نالت ضربة السيف من كليهما فضحك الجنود لذلك وغادروا.

حتى النساء الحوامل لم تكنَّ تسلمن من بطشهن، كانوا يضربونهنَّ بالسيوف ثم يخرجون الأجنة من بطونهنَّ ويلقونها بعيداً، ويتنافسون فيمن يسبق الآخر في قطع رأس الأرمني وأطرافه وسحق روحه وفقء عينيه

واقتلاعها من محاجرها، وكانوا يأمرون الأطفال بالاستلقاء على بطونهم ويجلدونهم حتى الموت ومن ثم يلقون تلك الجثث كلها في الأودية.

تلك الصور التي ازدحمت بها ذاكرة سركيس والتي كانت غير قابلة للنسيان، لم تكن تفارق خياله وقد أسبغت عليه ظلمتها، فطريقة ارتكاب الجريمة كانت مدروسة ووحشية.

من تلك الصور تحدث عن امرأة أرمنية كانت تسير مع حشود المشردين مع ابنتها، فاعترض طريقها أحد الجنود وطلب منها أن تعطيه ما لديها من مال، وعندما نفت وجوده معها قام بتمزيق ثيابها وأخذ ما كانت تخبئه فيها، وقام بقطع يديها ورجلها وتركها تنزف وتغرق في بحر من الدماء.. بعد ذلك سحب ابنتها الجميلة وقام باغتصابها أمام أمها الذبيحة، ثم قطع رأس الأم ومضى إلى فريسة أخرى.

وعن ذلك الرجل الذي كان يئن وجعاً فأهانه الجندي العثماني:

- لمَ تنهق كالحمار يا بن الحمار؟

- لست حماراً ووالدي ليس بحمار.

- اخرس، وإياك التجاوز، ثم أمر أحد الجنود بضربه على صدره ضربة حطمت أضلاعه وتركه طريح الأرض يلقى حتفه.

كان العثمانيون ينشئون المسالخ البشرية للتعذيب والذبح في جميع المناطق التي يستوطن فيها الأرمن، ويوقفون قوافل الأرمن أمام البوابات والساحات المحيطة بالمسالخ ليقوم الجزارون بعملهم، هؤلاء الذين كانوا من السجناء المجرمين والذين تلطخت أياديهم بالدماء قبل مذبحة الأرمن، ومن ثم تم الإفراج عنهم وإطلاق سراحهم ليواصلوا عملهم الإجرامي، كانوا يسوقون الأرمن إليهم الواحد تلو الآخر ويقومون بقطع رؤوسهم بسيوفهم الحادة.

يطول سرد تلك الحوادث ومن المحال أن يتخلص رأسه من تأثيرات مشاهدها وإن عاش ومات ألف مرة وخُلق في كل مرة من جديد.

في الأحوال الطبيعية للحياة، من الممكن أن يتمنى الإنسان موته ويكون أهون عليه من أن يشهد موت أحد أفراد أسرته وهذا مؤلم...

لكن الأمر الأشد إيلاماً ونحراً للقلب، تفضيل أم أن يقتل ولدها أو ابنتها قبلها ومن ثم تقتل هي، تفضيل

أخت أن يقتل أخوها قبل قتلها، أسبقية موته على موتها لتطمئن من أنه نال راحته الأبدية ومن ثم تنالها بعده فتموت بسلام، وهذا ما جرى أمام عيني سركيس.

لفت جمال إحدى فتيات الأرمن القائد، فناداها:

- أسلمي وسأتزوجك وتنجين من القتل.

- أنا أرمنية، أنا مسيحية، حييت أرمنية مسيحية وسأموت أرمنية مسيحية، لقد قتل أبي وأمي وأبناء شعبي أمام ناظري، ولم يبق سوى أخي الصغير هذا، لي طلب عدنك أتمنى أن تلبيه لي:

- ما هو؟

- اقتل أخي ومن ثم اقتلني.

أتى القائد بأخيها وأمسكه وضرب منتصف رأسه بلا رحمة بالفأس فسقط الطفل مفارقاً الحياة... قالت:

- والآن اقتلني.

فهوى على رأسها بفأسه وأرداها قتيلة.

كم كان الموت قاسياً جائراً يمضي بين تلك الجموع محملاً بأعلى طاقات الشر فلا يرحم كبيراً ولا صغيراً ولا كهلاً من النساء والرجال والفتيات والأطفال وهو يتتبع القوافل التي كانت تمضي الواحدة تلوى الأخرى.

حين كان الموت يحط رحاله كان كل شيء يتحول إلى قواطع ومخالب وأنياب يخدم الموت، حتى الأرض وما فيها من ماء وصخور ووديان وأشجار، فإنها إلى جانب الحيوان والبشر وباقي الكائنات الحية كانت مطواعة طيعة تتواطأ مع الجهات كافة لإحكام الجريمة وتمامها.

وتلك الديدان المخلوقات الضعيفة كان دأبها التهام ما في الوجوه الميتة والتي لازالت تحتضر من عيون وأنوف وآذان.

تلك الإبادة المتمثلة بشتى أساليب وأدوات القتل كانت الوجبة المهيأة للأرمن الذين كان يُخشى وجودهم، فالعثمانيون يعتبرونهم كفاراً مادام الإسلام لا يمثل عقيدتهم، وبالتالي هم شعب غير صالح للإمبراطورية العثمانية أو البقاء فيها ويُخشى أن يقسموا الإمبراطورية العثمانية، لذلك كانت الإبادة الحل الأمثل أمامهم مع تواطؤ بعض الدول ووقوف العالم مكتوف الأيدي.

الهمجية التي اتسم بها هؤلاء الوحوش كانت إحدى مفرزات التفكير المتخلف، إذ كان من المثير للسخرية والهزء والاشمئزاز أن رجال الدين العثمانيين قد أشاعوا فكرة بثوها في نسيج شعبهم العثماني فزرعوا بذور الحقد

والبغضاء تجاه المختلف، كان مضمونها: دم الأرمني محلل فهو مسيحي وكافر لأنه لا ينتمي إلى دين محمد وأمة الإسلام، وكل من يقتل أرمني ستُتوج نفسه بدخول الجنة...

من هنا سارع هؤلاء الحمقى للدأب لاهثين للحظي بتلك الجنة وإرضاء إله الشرّ لديهم بإراقة الدماء..!

يقول سركيس: إن المتخلفون باتوا يبحثون عن الأرمن في كل مكان ويسعون سعياً حثيثاً لإيجادهم وقتلهم وكسب رضا الله ومن ثم الجنة المأمولة..

وفي أحد الأيام سمعتُ رجلاً عجوزاً كفيفاً يصرخ بمن حوله:

- لا تتركوني هنا وحيداً، أنا أيضاً أريد الذهاب إلى الجنة، ائتوني بأرمني لأذبحه، أريد أن أحظى برضاء الله ورسوله.

ثم أتوه برجل أرمني فأدخل يده في حلقه واجتث حنجرته وعضَّه فتدفقت الدماء على كليهما وفارق الأرمني حياته. فصاح العجوز مبتهجاً:

- لقد بلغتك يا نبي الأمة والإسلام..!

في محطة من مسيرنا الشاق، بعد سير شهرين مات فيهما الكثير من الأطفال والرجال والنساء بسبب الجوع

والعطش والمرض وضعف المقاومة، اقترح علينا من يقود القافلة أن نتفرق كان رجلاً كردياً إنسانياً رحيماً، فاقتنعنا بالاقتراح على مساوئه وسلبياته مع إيجابيته في نقطة، حيث أن افتراقنا وتشتتنا في بقاع الأرض الواسعة لن يجعلنا محط أنظار الجنود العثمانيين والمرتزقة من بعيد، ولن يلتفت الانتباه كما يفعل تجمعنا، وكنا في منطقة بين ديار بكر وويران شهر حسبما ما أخبرنا موجه القافلة الكردي.

ثم تفرقنا ومضى كلٌّ منا في حال سبيله يلاقي صعابه وأرزاءه التي تنتظره وقدره المجهول..

مضت رحلة شائكة بالصعاب جابهتُ فيها ألوان التحديات التي لا تحصى في ظلمات الليالي التي تحمل كل ما تتخيله أولا تتخيله، تحاصرني فيها كمائن الموت.

وكنت أنام على الأرض وأسند رأسي إلى الحجارة أو الصخور، حتى أن مقاومة جسدي لعناء لسير كانت قد ضعفت كثيراً ولم أعد قادراً على المزيد من العوائق حتى بلغت في الليل مشارف قرية قوريا في ويران شهر، التي لم أعرف عنها شيئاً.

استلقيت على الأرض ونمت، وفي الصباح استيقظت على صوت رجل عجوز يوقظني بلطف حدثني باللغة

الكردية فلم أستطع التحدث.. تألم لأجلي كثيراً وغصت عيناه بالدمع.

ثم أعطاني خبزاً بالسمن وطلب مني أن أمتطي حماره حتى نصل القرية، وقبل دخولها أنزلُ عن الحمار وأواصلُ السير بمفردي ومن ثم سيمشي في حال سبيله، وكان قد أعلمني بأن هنالك خياماً لعائلة شلاش بإمكاني أن ألتجئ إليها لحمايتي وهذا ما حدث.

هنالك صادفت رجالاً لاحظوا سوء حالتي وانهياري فأشاروا إليَّ أن أدخل الخيمة لأرتاح، كان ينهم رجل اسمه "سلو" قال لي:

- اذهب يا بني إلى تلك الخيمة وقلت للمرأة فيها: عمي سلو قد أرسلني إلى هنا لرعاية أغنامكم.

حين خرجت لي تلك المرأة قالت:

- من أنت؟ وماذا تريد؟

- أرسلني العم سلو لأقوم برعاية الأغنام هنا.

يبدو أنها أدركت أني من المشردين الأيتام فتذمرت واستاءت وقالت بلهجة غاضبة وقاسية:

- ابتعد عن هنا، نحن بالكاد نعيل أطفالنا فكيف لنا بإعالة الأيتام؟!

أحسستُ بأن مرارة الإهانة تجتث قلبي ونار القهر تلهب إنسانيتي الكسيرة.

حين عدت إلى الرجال سألوني عما حدث فلم أستطع الإجابة وسقطت على الأرض مغمياً عليَّ، فسارعوا إلى إعادتي للوعي وظنوا أني لربما فارقت الحياة، ولربما ضرَّني تناول الطعام والسمن واللبن الذي أعطاني إياه العجوز وأكلته دفعة واحدة، فنزل فجائياً على معدة اعتادت الأعشاب فحدث لي ما حدث.

بعد عودتي للوعي سألني أحدهم كان رجلاً متوسط الطول أسود الشاربين:

- هل أنت مسيحي؟

كنت أعرف بعض مفردات الكردية فقلت:

- نعم.

- اطمئن يا بني، لا تخف.

ثم أمسك وبيدي وقال أمام الحاضرين:

- من اليوم فصاعداً هذا الولد ابني سأرعاه إلى جانب أولادي، وأسميه "سركيس" على اسم ولدي سركيس الذي مات كيلا يُقتل.

ثم اصطحبني إلى بيته واستقبلتني زوجته بلطف، لقد تأثرت لحالي الذي كان يُرثى له وكانت دمعتها تملأ

عينيها لحالي الذي يتحدث عن حاله، ثم هيأت لي الحمام ونظفتني وأعدت لي الطعام وسرير النوم.

لقد كانت تطعمني الخبر الحليب والسمن بيديها وهي تتألم لأجلي.. شعرت بشيء من حنان أمي وأبي يعود ويتجلى لي من خلال احتضانهما لوجعي وطفولتي، ويغمرني بأمل وبحياة فيها من الأمان والراحة ما يمكن أن يجعلني أستمر، فتبتعد عني تلك المخاوف والمعاناة التي تلبستني فيما مضى إلى غير رجعة.

فما عساي أن أفعل وقد فقدت أبويَّ وأخواتي وأسرتي، ومن المحال أن يعود ذلك الماضي المشرق بوجوه أفراد أسرتي، ذلك الماضي الذي بت أشعر بأن تلك الشهور الحافلة بالمصائب والمحن المتعاقبة قد أفلحت في جعله تاريخاً بعيد القدم عني..

وتبدأ حياة سركيس الجديدة في منزل عبدي وابن عمه خلف وكانا يسكنان في منزل واحد وزوجتاهما شقيقتان، ويصبح سركيس ابن العائلة، ويأتي أهل القرية لرؤية الولد اليتيم الذي احتضنه عبدي والذي قرر وصرَّح أمامهم بأنه سيربيه مع أبنائه، يأكل ويشرب ويلعب ويضحك معهم ويتقاسمون الحياة شتى تفاصيلها.

أثنى أهل على عمل عبدي وباركوا نخوته ورحمته وإنسانيته، واحتواءه له بين جناحيه بكل رأفة وشفقة ودلال حتى أنه لم يسمح بأن يرعى أغنام القرويين في البراري.

بعد ذلك خرجت عجوز مسنة من المنزل وقالت لعمي خلف:

- خلف، هذا الولد الكسير المجروح باليتم والحرمان سيكون أمر رعايته مسؤولية تقع على عاتقك، وكما ترى عبدي عجوز وصحته ضعيفة وأنت لم ترزق بأطفال والله شاء لك أن يعوضك بهذا الولد لتحمل وزوجتك مسؤوليته وتحيطاه بالرعاية والتربية الصالحة.

شعرت بأن دائرة قد اطمئناني قد اتسعت وأني أصبحت في أيادٍ أمينة رحيمة، وأني مقبل على حياة جديدة تحمل لي الآمال الطيبة.

لقرابة سنة وكوابيس الماضي ترافقني في الليل، تتراءى لي صور وخيالات القتلى والجثث والدماء والجماجم والرؤوس المقطعة فأستيقظ مرعوباً وأصرخ ملء ذعري ووجعي، لقد أتعبتُ عمي خلف وزوجته زين وآلمتهما بما كان يجري معي.

ثم تعافيت تدريجياً وبدأت صحتي تعود إليَّ وقويتُ بما أحاطني به أهل البيت من محبة وحنان، وكان عمي خلف قد هيأ لي ملجأ عميقاً يضع فيه طعامي وشرابي ويخبئني فيه ويحميني عندما يرتاد الجنود العثمانيون المكان ويدخلون البيوت لجباية الضرائب أو بحثاً عن المطلوبين.

كان يحبني ويحرص على مشاعري، يحتويني بكل حنان أبوي ويعجبه وعيي وبدأ يعلمني حمل المسؤولية، وكنت أرغب بمساعدته في العمل والقيام بما يوكل إلي من أشغال.

كان رجلاً ذا هيبة ووقار ويحترمه أهل القرية، طلب منهم أن يجيبوا عن كل من يسأل عن اسمي بأنني: سركيس ابن عائلة أوزمو لا غير.

لقد أصبحت معروفاً بأنني سركيس بن عبدي عتمان أوزمو، ابن شقيق خلف شلاش، وكنت أرتدي الزِّي الإيزيدي فلا مجال للشك بهويتي الحقيقية.

عشت وترعرعت في كنف تلك الأسرة حتى أصبحت يافعاً ورجلاً يعتمد عليه في كل الأعمال والمهام، وكنت السند لعمي خلف الذي كان يثق بقدراتي، ففكر بأن

يزوجني من أرمنية حصراً فيحافظ على انتمائي الديني المغروس في داخلي...

عرض علي عمي خلف الكثير من الفتيات إلا أنه لم ترُق لي أياً منهنَّ، وكنت أردُّ عليه بأني لا أفكر الآن بالزواج.

إلى أن شاء القدر وسمعت بفتاة أرمنية جميلة في قرية مجاورة اسمها "مريم" تعيش في كنف عائلة "رمان"، فمنذ طفولتها ووصولها إليهم كانوا قد غيروا اسمها كما غير والدي عبدي هنا اسمي إلى سركيس، وكان اسمها الحقيقي "زابيل" إذ نجت من المذبحة شأنها شأني في اليتم والقهر ومسيرة التشرد، وكانت قد وصلت القرية أيان المجزرة وأصبحت في حضانة أحد رجالها الإيزيديين ويدعى خلو هيتو، الذي قام برعايتها في بيته وتربيتها مع أفراد أسرته وأحاطها بكل الاهتمام والدلال، ولم يكن يوكل إليها أياً من الأعمال فعاشت عنده حياة رغيدة مرفهة.

كنت أفكر بالطريقة التي يمكنني أن ألتقي بها وكيف وأين، وبموجب عاداتنا الإيزيدية هنا أن الفتاة لا تخرج من المنزل إلا لجلب الحطب والقش وتأمين حاجات الماشية المنزلية ومن ثم تعود إلى المنزل.

شعور خفي داخلي أجج اندفاعي لرؤية تلك الفتاة في أقرب وقت، إنه شعوري بأني أعرفها مذ ابتدأ في ديارنا زمن الظلم والقهر والحرمان، مذ حل الموت علينا ضيفاً ثقيلاً دامس الظلمة، بل مذ خُلقت.. لقد شعرت بانجذاب نحوها وقبل أن أرها.

نعم أنا أعرفها جيداً.. أعرفها مما مضى وأدرك مشاعرها الطفولية آنذاك وهي تشهد سيول الدماء مثلي تماماً.

وددت رؤيتها لأخبرها بأني عشت ما عاشته ورأيت ما رأته وشعرت بما شعرت به، فمضيت على حصاني في صباح اليوم التالي نحو القرية التي تقيم فيها، وبلغت السهل حسبما وصفته لي عمتي، فرأيت عدداً من الفتيات الإيزيديات اللواتي أعطاهم زيي الإيزيدي إشارة إلى أنني شاب إيزيدي.

تقدمت من إحداهن وكانت تجلس بشكل متطرف عمن حولها وقلت:

- صباح الخير يا أختاه.

ـأهلا وسهلاً أيها الأخ.

- لدي سؤال من فضلك، هل هذه هي قرية خلو هيتو؟

- نعم يا أخي إنها ذاتها وإن أردت رؤيته فهو في بيته.

كانت الفتيات من حولها يواصلن عملهن في الأرض والمناجل والفؤوس بأيديهن، ثم باشرت بسؤالها مرة أخرى:

- لدي سؤال آخر من فضلك.

- على الرَّحب والسِّعة تفضَّل يا أخي.

فاندفعت بسؤالي وقلت لها:

- هل مريم بينكنَّ؟

ما إن سألتها حتى ارتدى وجهها ثوب الاحمرار وانفعلت لهجتها وكأنما شتمتها أو سببتها، ورفعت الفأس وقالت:

- كيف تسأل عن مريم، ألا تخجل من نفسك وأنت شاب إيزيدي؟!

- تمهَّلي يا أختاه، لا تتسرعي لست إيزيدياً أنا مسيحي.

ثم تريثت قليلاً وخفت حِدَّة انفعالها وقالت:

- لكن ملابسك وشاربك وطريقة كلامك.. كل ما فيك يشير إلى أنك إيزيدي.

- هل سمعتِ بخلف شلاش؟

- نعم أعرفه، هومن كبار رجال ووجهاء عشيرة بلكان التابعة لقبيلة الشرقية.

- حسناً. انظري أنا ابن عبدي عتمان أوزمو، ابن شقيق خلف شلاش، أنا ابنهم الأرمني الذي ربوه، وعمي خلف الذي رعاني ورباني هو بمثابة أبي.

ـ... آسفة يا أخي أخطأت الظن، استغربت سؤالك عن مريم، وظننتك إيزيدياً وتدرك اختلاف الديانتين، ثم انظر مريم تعيش حياة مدللة عند والدها ولن يزوجها إلا من أرمني يستحقها فيطمئن قلبه تجاهها.

غادرت المكان وفي اليوم التالي عدت إليه وحادثت تلك الفتاة نفسها وسألتها عن مريم، فأشارت بيدها، انظر إلى مريم إنها هناك تلك الفتاة التي تجلس على الأرض المرتفعة.

بعد أن استدللتُ على مريم، سبقني قلبي المتلهف الشغوف لرؤيتها، شعرته يركض أمامي لاهثاً لارتشاف حزن عينيها وجمالها الذي سمعت عنه ولمسح دمعتها العالقة لا شك في عمق قلبها.

وعلى الفور مضيت إليها تأملتُ حسنها ورقتها، قوامها الممشوق، خصرها، القبعة التي ترتديها، شعرت بطوفان

من المشاعر يندفع في لحظة واحدة لدى رؤيتي لها، حتى أنني تجرأت في اقتحام خلوتها بمحادثتها:

- مرحباً، هل أنت مريم ابنة عمنا خلو هيتو؟

- نعم، ما حاجتك؟

ثم تجرأت أكثر بكلماتي التي لم تتريث قليلاً وأخبرتها بطلبي مباشرة:

- لو تقدمت بطلب يدك من والدك وخطبتك هل ستوافقين؟

ما إن سمعت ما قلته حتى التقطت حجراً من الأرض وقالت:

- ألا تخجل من والدك وأنا مريم المسيحية ابنة هيتو؟! كيف تتجرأ على هذا الطلب وأنت إيزيدي؟! انظر حتى الآن لم يجرؤ أحد على أن يطلب مني هذا الطلب.

كانت صديقاتها يرسلن إلينا نظرات تساؤل وحيرة من بعيد ويضحكن ويتهامسن فيما بينهن، لكني كنت جريئاً إلى حد أني تحدثت بطلاقة قلت:

- زابيل، لست إيزيدياً! أنا سركيس كيفو ابن أخ خلف شلاش الذي رباني وصار بمقام والدي، أنا أرمني!

زال انفعالها واسترخت يدها وسقط الحجر من يدها، وقالت بحياء وخجل:

- هل أنت سركيس بن خلف شلاش؟

- نعم.

- قلت: نعم، سركيس نفسه، عمتي عربية دلتني عليك وأثنت عليك فأتيت لرؤيتك وأخذ موافقة منك، إن وافقتي سيأتي عمي خلف مع كبار ووجهاء عشيرة بلكان لطلب يدك من خلو هيتو. وإن لم تكن هنالك موافقة فالأمر منتهٍ.

- حسناً، إذن تريدني زوجة لك..

- لقد وصلتني رائحة وعطر سمعتك الطيبة ومواصفاتك، جمالك وأدبك وأحوالك المشابهة لأحوالي، انجذبت إليك بقلب عاشق، صُلب قلبه عندك قبل أن تراك عيناه، مشاعر دفينة لا يمكنني تفسيرها لكن كل ما بوسعي قوله أنها تدفقت عند رؤية صباحكِ بالفرح والموسيقا وأطايب الطعام لأيام متتالية وأنجبنا الأطفال والموسيقى

أريدك شريكة حياة لي نواصلها معاً، عساها تكون استئنافاً مصحوباً بحبٍّ يحمل لنا الاستمرار والسعادة الأبدية.

- ليأتِ عمك ويطلب يدي، لكن في حال اعترض والدي فإن مئة آغا وباشا إن حضروا معك لن أوافق.

في ذلك اللقاء حصلت على موافقة قلبها.. وكان هذا أهم شيء كان عندي، بقيت موافقة والدها رهن الانتظار وتياسير الظروف.

ثم سار الأمر بين عقبات وانفراجات حتى تحقق حلمي ومناي الذي كنت أدرك منذ اللحظة الأولى، مذ رأيتها أنه سيتحقق وأني سأحظى بها مهما تعثر الأمر وهذا ما حدث.

لقد جمعتنا الكارثة والمصيبة وألقتنا في معابر وطرقات الضياع والجوع والعطش والرعب والآلام، ثم شاء لنا القدر أن نلتقي وتلتقي آلامنا وحرماننا وأوجاعنا، ونبدأ حياة مكللة بالحب والانسجام، لقد ابتسم لنا الحظ مرة أخرى، وتزوجنا وأقام لي عمي في القرية عرساً حافلاً بالفرح والموسيقا وأطايب الطعام لأيام متتالية وأنجبنا الأطفال.

أتذكر مما مضى أنه بفضل اهتمام والدي ورفعه لمعنوياتي وثقته بمهارتي وبإمكاناتي وتهيئته لفرص ومجالات العمل لي، تمكنت من العمل المتنوع والإنتاج المثمر وتحصيل المال، فصرت محط أنظار وغيرة من حولي من الحاسدين والكارهين.

حتى أن جندو داوود أحد رجال القرية عرض علي يوماً أن أقوم بالإشراف ومتابعة كل ما يتعلق بمحاصيل المواسم السنوية، ومع مرور السنين تحسنت أوضاعي المادية كثيراً بطريقة لفتت الأنظار وأثارت دهشة من حولي.

بتُّ أمتلك الأحصنة والبنادق وازدادت ثقة من حولي بي، فاتجه بعض الحاسدين إلى تحطيم هذه الصورة لي في عيون أهالي القرية.

قديماً في الماضي كان اللصوص يفاخرون ويزهون بسرقاتهم في المجالس والمجامع، حتى أن مقولةً كانت شهيرة بين بعض القبائل والعشائر من العرب والأكراد أيضاً بهذا الخصوص تقول: "من لا يكون سارقاً، فليس برجل".

وبعض الأمهات والآباء كانوا يباهون ويشيدون بأبنائهم حين يسرقون سرقة غانمة، كانوا ينظرون إليهم نظرة فخر ويقولون: "أيها اللص السارق".

وكانت مسؤولية حماية القرية وحراستها تقع دائماً على زعيم "عكيد" القرية، وينال السارقون عقوبات قاسية منه جراء فعلتهم وعدم نزاهتهم.

انطلاقاً مما سبق، من رغبة بعض المغرضين في تشويه سمعتي وزعزعة ثقة عمي جندو داوود بي وتسليمه لي جميع أمور محاصيله السنوية، خطط هؤلاء لمكيدة لي:

في إحدى الليالي كنت في البيدر عند أكوام القش عند التبن الذي تم جرشه، وكان سلاحي إلى جانبي في ذلك الوقت المتأخر من الليل، حيث الظلام كثيف وليس بالإمكان لمح أحد قادم إلى هذا المكان، ثم سمعت صوت شيء يتحرك على مقربة مني، وحاولت الإصغاء إلى جهة ومصدر الصوت ثم صرخت باللغة الكردية:

- من أنتم؟؟

لم يجبني أحد. ثم عاودت المناداة:

- من أنتم؟

كذلك الأمر التزموا الصمت، ثم لمحت رأسين لاثنين يتقدمان ويقتربان مني، ومرة أخرى ناديتهما دون ردٍّ، كانت مناداتي تذهب أدراج الريح ودهمة الليل.

يبدو أنهما ظنَّا أنني سأهرب خوفاً إلا أنني بقيت أراقبهما وهما مستمران بالتقدم حتى اقتربا مني كثيراً، فألفيتهما يزحفان على الأرض، فوضعت فوهة بندقيتي فوق رأسيهما وأطلقت رصاصة في السماء.

فصاح أحدهما وقد ألقى بنفسه على الأرض:

- لقد قتلتنا يا خال.

- أنتما من قتلتما أنفسكما، من أنتما ولِمَ أتيتماني؟

حين تمكنت من روية وجهيهما عرفتهما، لقد كانا خلف حسو والآخر جلو!

هذان البغيضان اللذان رتبا لي هذا الفخ، لقد افتعلا ذلك لأهرب فيسرقا القمح ويبلّغا فيما بعد عمي جندو بأن وضعه للثقة والائتمان كان في غير مكانه، وبالتالي كانا يريدان إيصال رسالة له فحواها عدم كفاءتي لهكذا مهام ومسؤوليات وأعمال.

على صوت إطلاق الرصاص اجتمع بعض رجال القرية وعمي جندو، فسألني:

- ماذا جرى يا سركيس؟

- لقد اقتربا مني في الظلام وحين ناديتهما مراراً وتكراراً لم يُعرِّفاني بحالهما ولم ينبسا بحرف، فأطلقت رصاصة فوق رأسيهما.

كان الهلع قد أصاب أحدهما بالإغماء فرشوا الماء على وجهه ليصحو، وأدرك عمي غايتهما ونواياهما الدنيئة وسبب قدومهما في هذه الظلمة والوقت المتأخر من الليل وبالتالي ازدادت ثقته بي واتجه إليهما بالحديث:

- يا لحماقتكما!! أجئتما لإخافة سركيس؟! هذا الرجل قد تعرض في الثامنة من طفولة عمره لمئات الحوادث الخطيرة والمرعبة وتجاوزها، لقد نام بين الوحوش الضارية في البراري وبين الثعابين والدببة والذئاب في الصحارى والأودية على الصخور، واليوم أنتما آتيان لإخافته وسرقة القمح؟!!

ما ينبغي عليكما غداً حزم ما لديكما من أمتعة وحقائب والرحيل عن هذه القرية فلا مكان لكما بيننا بعد الآن.

لم تكن هذه الحادثة الوحيدة التي أظهرت جدارتي، وإنما كثيرة كانت الموقف التي أثبتت رجولتي وحكمتي ومكانتي الوزينة بين أهلي وأقربائي ومعارفي في القرية وما حولها في القرى المجاورة.

ذات يوم سمعت صوت "سلطانة" امرأة في قريتي، كانت تصرخ وتستنجد بالناس الذين التموا حولها وسألوها:

- ماذا جرى يا سلطانة، صراخك أشعرنا بالذعر؟؟

- أخبروا عمي جندو أن اللصوص قد دخلوا بيتنا وسرقوا البغل والحصان.

خرج عمي جندو وعدد من الرجال وخرجت أتبع اللصوص وكل منا خرج في اتجاه مختلف، قرية دوكري مبنية في سهل منخفض تحيط بها التلال والوديان، ووجود العديد من هذه الأودية والصخور والمعابر الشبيهة بالأنفاق يشكل مخارج مختلفة لاختباء اللصوص، التقيت بعمي جندو ومن معه من الرجال عند حدود قرية "قري".

كنت قد استرجعت الحصان والبغل وربطتهما بالفرس وقفلت راجعاً، فسعد عمي جندو وأمسك بيدي وقال:

- ما الذي جرى يابن أخي؟

- سمعت صراخ سلطانة تصرخ وتطلب النجدة، فعدت إلى المنزل وحملت بندقيتي ومسدسي وتبعتهم، وأطلقنا النار بعضنا على بعض، كنت أطلق عليهم النار تارةً بالبندقية وتارةً أخرى بالمسدس ليظنوا أن جميع القرويين يلاحقونهم! حتى أجبرتهم على ترك الدابتين والهرب.

لم تسعِ الفرحة عمي جندو وطفق يصرخ بأعلى صوته:

- هذا البطل الشجاع وحيد، عاش بدون أم، بدون أب، بدون أخوة أو أخوات، ولديه ولد وحيد. انظروا إلى

هـذا البطـل المقـدام الـذي عـرض حياتـه للخطـر لأجـل حماية ممتلكاتنا وكرامتنا، بينما الكثيرون منكم للأسف لم يسمعوا استغاثات تلك المرأة!

ثم احتضني بعمق المحبة والاحترام والتقدير وقال:

- أنت كنز ثمين بالنسبة لي ولهذه القرية وأهلها، لتبقَ دائماً في حماية الله وعيسى المسيح وطاووس ملك.

ويوماً بعد يوم تزداد شهرة سركيس ويتألق نجمه في فضاء المنطقة، ويغدو القلعة المنيعة التي يحتمي بها كل ضعيف ومحتاج.

حتى أن الناس باتت تلجأ إليه في حل مشكلاتها وفض صراعاتها التي تنشب فيما بينها لكونه كان محضر صلح ووئام وسلام، وكان له دوره الفعال في المجتمع الإيزيدي.

كان واسع المعرفة بالحياة وتجاربها وكيف لا وقد تلقن أقسى الدروس في نعومة أظفاره إذ كان طفلاً، وخرج من تلك المحن بإصرار على مواصلة الحياة!

الضربات القاسية لرماح السنين التي أوجعته ومزقت شراينه جعلت منه إنساناً بلب جبل قادر على احتمال وتحمل واستيعاب أقسى أنواع العذاب.

والاحتضان الذي حظي به لدى العائلة الإيزيدية استوعب تداعيات جراحه وكفكف وجعه وهدهد أشجانه وبث في روحه نور الأمل والتفاؤل ودفعه بقوة نحو الحياة...

تحدث سركيس مجارياً مراحل حياته الجديدة بالاطلاع على مستجدات التجربة الماضية مع توالي سنوات عمره: لم أكن الوحيد الذي حظي برعاية الإيزيديين في مناطقهم، بل كان هنالك الكثير من الأرمن ممن حظوا بهذا الغوث والعون والنجاة، وكانت الإبادات والمجازر والإحساس العميق بتداعيات الكارثة القاسم المشترك بين الكرد الإيزيديين والأرمن، فكلاهما ذاق من ويلات الدولة العثمانية ما لا يتصوره عقل، وكلاهما يدرك ما يعنيه اقتحام هؤلاء الوحوش لأقلية ليست مسلمة.

جانوكزبر الأرمني

الظروف التي دفعت جميع المشردين النازحين إلى المناطق الإيزيدية، هي ذاتها ما دفع هذا الرجل إليها بعد موت زوجته، ليحزم وابنته الصغيرة حقائب الرحيل ويغادر الحدود الإيرانية التركية "سلماس" ويتجه إلى الموصل، حيث يحتمي من غطرسة الحملات العسكرية العثمانية على مناطقهم.

اتجه إلى قرية ختارة الإيزيدية التابعة إلى ناحية القوش شمال الموصل، وطلب من "حجي خديدة كوزي" السكن وابنته "وداد" في إحدى غرف بيته، وتربت الفتاة مع العائلة، ولكبر سنه فإنه لم يكن قادراً على القيام بمهام البيت من إعداد الطعام والغسيل والتنظيف واحتياجاته، فكان أفراد أسرة حجي هم من يقومون بهذه الأعمال فهو غائر الجرح خائر القوى، وقد أنهكت هذا الرجل النكبات وما توالى عليه من نائبات الزمن،

فجعلته يبلغ الشيب قبل أوانه حين نسفت آماله وصلبته على أوتاد العجز.

كانت لديه مكتبة غنية بالكتب وكان شغوفاً بالقراءة والاطلاع ويتابع باستمرار أخبار الأرمن المهجرين بعد الإبادة.

عرف هذا الرجل بطيبته وسماحته، وكان يقدر هذا العمل الإنساني للعائلة، ودائماً يدعو إلهه لأن يعين ويحفظ عائلة حجي برعايته، تلك العائلة التي قامت بكل ما افترضته عليها إنسانيتها من إغاثة المأزوم ومد يد العون والمساعدة، لقد قامت بكل ما يرضي ضميرها الحي تجاه هذا الرجل، فلولا وقوفها إلى جانبه واحتوائه لما استطاع تدبير أموره وقضاء حاجاته، وحتى أهالي القرية فإنهم كانوا يكنون له الاحترام والتقدير ويعدونه فرداً منهم.

ومع مرور الأيام ساءت حالة الرجل وكان على فراش الموت يشكر حجي ويدعو له أن يحيطه الله بكل الخير والتوفيق في الحياة، لكنه كان قلقاً لأجل فراق ابنته التي ستغدو بلا أب ولا أم ولا أقرباء.. ولا تزال في مرحلة الدراسة الابتدائية، فائتمنه عليها وأوصاه بها.

لقد كان موته يمشي بهدوءٍ متثاقلٍ وئيد الخطا مما يحمله على ظهرِ آخرِ لحظات حياته من همٍّ وقلق وخوف على مصير ابنته الصغيرة من بعده...

لقد طمأنه حجي على مصير ابنته عنده بأنه سيرعاها ولن يزوجها إلا من أرمني فتحافظ على دينها ومعتقدها المسيحي حتى اطمأنت روح جانو وفارق الحياة... ثم تم ترتيب الجنازة وإرسالها إلى دير مريم العذراء في القوش.

عاشت ابنته وداد مع أفراد العائلة حياة مستقرة آمنة دون أن تشعر بأنهم غرباء عنها، وفي أحد الأيام ناداها معلم مسيحي كلداني يدعى "حبيب فاضل النجار" باسم "وداد جانو" فردَّت على المعلم:

- أرجوك نادِني باسم "وداد حجي خديدة" فأنا الآن ابنة حجي خديدة كوزي.

- ولكن اسمك في الهوية الشخصية وداد جانو.

- إن لم تنادِني باسم وداد حجي سأترك المدرسة والدراسة، وتحمل ذنبي لذلك.

وحينما كبرت التحقت بدير الرهبان هرمزد في القوش، ومن ثم بدير أرمني في بغداد، ومن ثمَّ انتهت رحلة التشرد والترحال بمغادرة البلاد إلى فرنسا.

ممن عاشوا في كنف الإيزيدية واستأنفوا الحياة، فعائلة حجي خديدة قامت بإيواء الأرمني "جانو كزبر" إلى حين وفاته وكان قارئاً للكتب، وتم تسليم ابنته حين بلغت التاسعة من عمرها إلى دير الرهبان هرمزد في القوش، لئلا تصادق إيزيدياً فهذا محرم عند الإيزيديين، لقد تجلت صور المساندة في احتضان أطفال الأرمن الأيتام وتربيتهم تربية صالحة وإحاطتهم بالرعاية والاهتمام وتزويجهم من أبناء وفتيات دينهم.

تداعيات التجاء الأرمن إلى الإيزيديين

لقد تم إيصال الكثيرين من هؤلاء الأرمن بعد تلك المذبح وويلاتها ومسيرات التشرد إلى سنجار إلى الإيزيدي حمو شرو حيث تم استقبالهم واحتواؤهم في مناطقهم وإنقاذهم من سطوة البطش.

وعندما علمت الدولة العثمانية بذلك وطلبت تسليمهم وقوبل طلبها بالرفض أصدرت أمراً بإبادة الإيزيديين في سنجار.

وفي عام ١٩١٥ التجأ أربعة آلاف شخص أرمني إلى الإيزيديين وتزايد إلى الستة آلاف ألجأهم الأهالي وقدموا لهم متطلبات العيش وأقسموا بعدم تسليمهم للعثمانيين مهما حاولوا.

كان ذلك موقفهم الذي أبرزوه على خلفية أن عاداتهم وتقاليدهم الدينية والعشائرية تتنافى مع أمر تسليم الدخلاء، وإلى جانب ذلك تهيؤوا وتسلحوا لمواجهة وصدِّ أي هجوم مباغت.

لقد كان الإيزيديون موضع ثقة الأرمن لكونهم أقلية مضطهدة لم تنخرط في صفوف الجيش العثماني، وثمة علاقات قديمة سابقة بين الطرفين ومؤازرة الإيزيديين البطولية للأرمن في المذبحة الأولى.

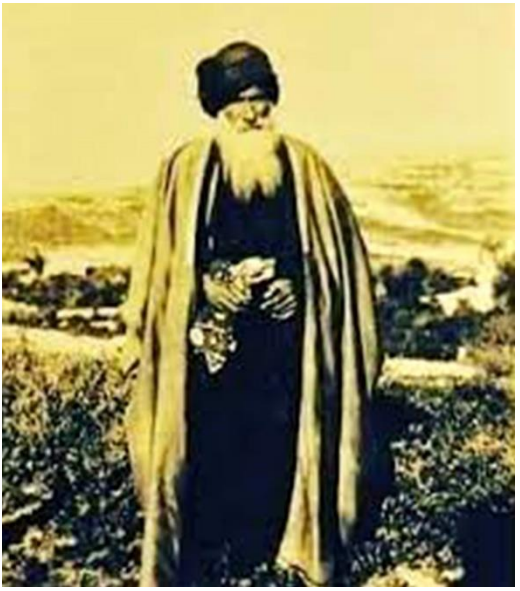

كل ذلك تضافر معاً ليجعل من الشعبين نسيجاً متآلف متحد على عدو مشترك، وكان زعيم الإيزيديين "حمو" يأمر الإيزيديين بمساعدة الأرمن ويهددهم بالعقاب في حال تقاعسوا عن ذلك أو تمنعوا.

ومع تمسك حمو بموقفه ورفضه تسليم الأرمن بعد إنذارين، تم تهديده من قبل الحكومة العثمانية، وتوعُّده بهجوم عسكري على مناطق سنجار، فاستعان بالإنكليز من خلال إرسال رسالة يحملها رجل مسيحي يدعى "أوسي" يطلب مساندتها له ضد العثمانيين.

فبلغه الرد من قبل قائد القوات البريطانية الجنرال (ستانلي مود):

"إنّ الحكومة البريطانية ممتنة وشاكرة لاحتضانكم الأرمن والمسيحيين، وإنها على استعداد لمساعدتكم في كل ما يلزمكم"

لقد كانت الرسالة موجهة إلى جميع زعماء الإيزيدية في جبل شنكال ولا سيما حمو شرو وإسماعيل بك جول الذين استبسلا في إغاثة حماية أرواح الأرمن وتأمين متطلباتهم.

وبعد الحرب العالمية الأولى دحرت الدولة العثمانية وولت عن أراضيهم، وتوقفت الحملات العسكرية، ففكر اللاجئون الأرمن بمغادرة سنجار وشكروا حمو شرو واستأذنوه بالرحيل بحثاً عن فرص العمل في الموصل وبغداد وسوريا ولبنان.

كـان حمـو فـي بدايـة القـرن العشـرين الماضـي برتبـة (فقير) أي أحد رجال الدين في الإيزيدية، وبرغم كونه دياني العشيرة ولا يحق له أن يلبس خرقة الفقراء إلا أن والده وليرحمه الله كان قد حصل على الموافقة الرسمية على ذلك الشرف.

وعندما قرر قادة وجنود ومرتزقة الخلافة الإسلامية العثمانية مهاجمة وقتل ما تبقى من أبناء القوميات والأديان غير المسلمة، كان الشعب الأرمني هدفاً وضعته نصب عينيها، وفي ذلك العام ١٩١٥م استطاعت جموعاً والعشرات من الأرمن اللوذ بأرواحها واللجوء إلى مناطق في جبل شنكال حيث كان الفقير حمو صاحب النفوذ آنذاك!

فقام الفقير حمو بتحدي السلطات العثمانية بإيواء هؤلاء المهجرين والمشردين من العوائل الأرمنية وضمان الحماية لهم إلى حين نهاية الحرب العالمية الأولى ما بين ١٩١٤- ١٩١٨ ودخول القوات البريطانية العراق ووصولها إلى شنكال.

فقام الأرمن بمنح حمو لقب "الباشا" امتناناً لموقفه الإنساني إزاءهم، إلا أن ذلك الأمر كانت له تداعياته!

أثار اللقب حنق وغيظ رؤساء العشائر هناك فاندفعوا إلى محاربته، وحتى اليوم ذلك التحارب القديم لا يزال يتجدد في أحفادهم.

لقد حاول الفقير حمو السيطرة الدينية والدنيوية على من حوله من أبناء جلدته، لم يطلب من بريطانية بناء المدارس ولم يسعَ في تشكيل إقليم، وكان بإمكانه توسيع وجعل امتداد شنكال يتجه شمالاً، لكن كل ما قام به هو توسيع نفوذه العشائري.

احتاجت الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى إلى تجنيد الشبان من غير المسلمين، وجعلت قانون التجنيد إلزامياً، وامتنع الأرمن والكرد الإيزيديون عن الالتحاق بصفوف الجيش العثماني، الأمر الذي قدم للدولة ذريعة ومسوغ لاقتحام مناطقهم والفتك بهم وسفح دمائهم.

وشرعت تطارد الأرمن في بقاع وان وأرضروم، ومع تلك المستجدات فإن الأرمن وجدوا أن الحل الوحيد يكمن في اللوذ والالتجاء إلى شنكال حيث القلعة المنيعة بأهلها الإيزيديين القادرة على حمايتهم، وسبق أن لاذوا إليها في مذبحتهم الأولى.

ويقول إبراهيم خليل احمد: بان أعداد أخرى من الأرمن في سنة ١٩١٦ جاءووا من ماردين والشدادة ودير الزور العدد قرابة ٤٠٠ فرد وقال حمو شرو يجب ان نطعمهم ونحترمهم، ويقول ارملة تم بناء البيوت لهم من قبل الجماهير الإيزيدية[١]

يذكر إسحاق أرملة أسماء لعوائل أرمنية ماردينية كانت قد لجأت إلى شنكال آنذاك والأعداد كانت تفوق بكثير ما أورده من أسماء:

إلياس مالووبيت عمه فرخالله كسبو، أسرة كجو، حنجو، بلبلة، خوداي، أبرط، عمجا، دريج، طازباز، حستك، برغزث، كليوبجي، تازا، سرفة، بوشة، بغدي، سعرتوي، منكلو، فروجي، شد، جندولة، بازوعا، صول، الخراب، أصبهان، ماغو، نعمو، مقدسي عموس، جمالديني، تتري، أصلو، نعلبند، ووووأسماء سواها يكثر عددها.

ومن الأفراد: أزرق، حاجيكة، ماميش، مشقع، نهبيا، زرمبا، سحار، كويل، باهي، كرابيت، طماسس، جاير.

١- أحمد، إبراهيم خليل، ولاية الموصل دراسة في تطوراتها السياسية ١٩٠٨-١٩٢٢، رسالة ماجستير كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٧٥، ص ١٨٦.

وصل اللاجئون الأرمن إلى شنكال، وكان معظمهم من الأطفال والنساء والشيوخ، فاستقبلهم حموشرو وأوصلهم إلى قريته "ملك" وأمن لهم جميع مستلزماتهم واحتياجاتهم من الطعام والمسكن واللباس والمؤن.

وبالرغم من عدم اتساع بيوت قرية ملك بأفواج اللاجئين من الأرمن، فإن حمو لم يتخلَّ عنهم وإنما قام بإرسالهم إلى القرى المجاورة التي يضمن لهم فيها الحماية والرعاية، كقرية كولكا وجدالة وقسركى وسواها من القرى.

يذكر إسماعيل جول بك المعاصر لتلك الأحداث، أن حوالي مئة عائلة أرمنية كانت قد وصلت إلى قريتي كرسي وبردحلي وتم تأمين كافة مستلزمات العيش لهم.

ويردف جول بك ذلك الحديث بأنه كان قد تجول بين الإيزيدية المتواجدين في شنكال وطلب منهم مدَّ يد العون والمساعدة للأرمن واحتواءهم بسعة تعاطف وتآزر إنساني، وأن ذلك شرف كبير لكل أيزيدي أن يصدر عنه هكذا موقف إنساني.

لقد أكد الكثير من المؤرخين الأرمنيين تلك المواقف للإيزيديين، وكذلك هنالك مصادر إنكليزية أكدت ذلك، على سبيل الذكر "لوك" حين قال: "يجب أن نذكر

التصرف الصحيح والحسن للإيزيديين، ففي الحرب العالمية الأولى على الرغم من اضطهادهم الشديد فإنهم فتحوا أبواب الملاجئ للأرمن النازحين من دير الزور إلى جبل شنكال زمن مذابحهم، ورفضوا تسليمهم للعثمانيين برغم الضغوطات عليهم والإنذارات والتهديدات الكثيرة التي وجهت إليهم".

وذكر آلمس بيل: "أن الإيزيديين أبدوا تعاطفاً كبيراً مع المسيحيين، وقاموا بإيواء الكثيرين من اللاجئين منهم في جبل شنكال".

وفي هذا الصدد ذكرت الليدي درور: "ولليزيدية شهرة خاصة شائعة في حب الخير والإحسان، فلقد بلغني أن ما يقار الأربعمئة لاجئ خلال الحرب العالمية الأولى اندفعوا صوب سنجار واستجاروا بشيخها الإيزيدي المعروف بـ حمو شرو فاحتضنهم وقد عرفه الناس بإغاثة الملهوف والمكروب، وإعانة الناس على نوائب الدهر ومحنه".

ثم وجدت مئة أسرة لاجئة تعيش بؤس الحياة والعيش والمأكل والمأوى في قرية الشيخ المذكور ذاته.

وفي ربيع آذار سنة ١٩١٦تدفقت أفواج من الأرمن إلى جبل شنكال، قدموا من ميردين وونواحي الشذادة

ودير الزور، واستقبلهم الإيزيديون والأرمن المتواجدون قبلهم بحفاوة وقلوب دافئة.

هنا خاطب حمو شرو إيزيدية شنكال مرة أخرى، وأكد على ضرورة إكرام المشردين الأرمن واستقبالهم استقبالاً إنسانياً: "هؤلاء الناس لم يلتجئووا إلينا منذ عهد المسيح، والآن علينا بإطعامهم ومن يرفض ذلك ستحلُّ عليه لعنتي."

وبعد أن استقروا في المناطق أعطاهم حمو شرو الأراضي والبساتين ليزرعوها فتكون مصدراً لهم للعمل ولمعيشتهم.

ثم بلغ السلطات العثمانية إيواء الإيزيديين للأرمن في قراهم مع استعار الحرب العالمية الأولى، واشتعلت غيظاً فأرسلت له التهديدات لكنه لم يتراجع عن موقفه تجاه الأرمن وبقي متشبثاً به مصراً على عدم تسليمهم لها.

باتت الحملة العسكرية على شنكال واضحة المعالم والمؤشرات وتم التواصل مع الإنكليز الذين عبروا عن امتنانهم للإيزيديين وعلى رأسهم حمو شرو وإسماعيل جول، الذين حرصا الحرص كله على الحفاظ على سلامة الأرمن وصون حياتهم، وأكد الإنكليز على

استعدادهم لتقديم كافة المساعدات والدعم، وبلغت السلطات العثمانية الأخبار فسارت سورتها وباشرت بإرسال حملة عسكرية مرة أخرى.

في أواخر سنة ١٩١٧ انطلقت حملة عثمانية نحو شنكال بقيادة القائمقام العسكري الحاج إبراهيم بك، وقد تضمنت لواء كاملاً مشكلاً من فوجين من كروس ٢٢ ومن فوج المستوع وبطرية من المدافع الجبلية.

بعد وصول الحاج إبراهيم بك وقواته إلى تلعفر انضم إليه عدد وافر من رجال العشائر التلعفرية، ثم توجهت الحملة مع مواءمة الظروف المناخية صوب شنكال.

وصلت القوات العثمانية في ربيع آذار ١٩١٨ إلى عين غزال ثم خيمت بالصولاغ في منطقة قرية "التبة "على بعد ميلين من مركز شنكال البلد، وفي هذا المكان أنذر قائد الحملة الحاج إبراهيم بك الإيزيدية وعلى وجه الخصوص حمو شرو بتنفيذ ثلاثة شروط:

كان أول تلك الشروط تسليم اللاجئين الأرمن وكان محتوى الرسالة المرسلة مع قائد الحملة: "ابعث لي بجميع من عندك من النصارى الأرمن، وإلا أنزلت بكم الوبال والويلات ودمرت دياركم" إلا أن حمو شرو أبى

أن يسلم الأرمن وكان قد قال: "كيف أرسل له النصارى الأرمن وقد هيأت لهم الأمان..".

وهاجمت القوات العثمانية الإيزيديين بقيادة الحاج إبراهيم بك، واصطدمت بـ حمو شرو وقواته ونشبت بينهم معارك طاحنة لم تكن متكافئة من حيث العدد والعتاد، وبعد المقاومة اضطروا إلى اللجوء والتحصن بالجبل مع اللاجئين الأرمن والاختفاء في الكهوف والمغاور، وهرب عدد منهم إلى نصيبين بغية النجاة من ويلات القوات العثمانية.

ويذكر اسحاق ارملة: تحديدا بسبب اتصالهم بالقوات البريطانية وايوائهم الأرمن[1]. وذكرت المس بيل انطلقت هذه الحملة سنة ١٩١٧ بقيادة القائممقام العسكري الحاج ابراهيم بك، وقد ضمت لواء كامل المتشكل من فوجين من الكردوس ٢٢ ومن فوج المستودع فضلا عن المدافع الجبلية، ونزلت القوات العثمانية في تلعفر في كانون الأول سنة ١٩١٧م ومكثوا فيها بسبب برودة فصل الشتاء وغزارة الأمطار. واجتمع الحاج إبراهيم بك مع رؤساء عشائر تلعفر وبحضور والي الموصل ممدوح بك

١- سحاق ارملة التصارى في نكبات النصارى، بيروت، (١٩٢٠، ص ص ٣٧٢-٣٧٦.

وقائممقام تلعفر منير بك ومدير الناحية مصطفى افندي والسيد عبد الله والحاج يونس، وقد طلب الحاج ابراهيم بك من الرؤساء ابداء المساعدة لتأديب اليزيدية فضلا عن طلبه شخصا له معرفة بمواقع اليزيديين في منطقة سنجار وله دراية بعاداتهم ويجيد لهجتهم وكان هذا الشخص هو عمر احمد علو. وقد اسهم التلعفريون بـ(١٠٠٠) فارس. وانظمت إلى الحملة العشائر العربية الموجودة في المنطقة وهي: شمر، طي، الجبور، الجحيش، البو متيوت[١]. وسارت القوات العثمانية والعشائرية من تلعفر في ٢٦ آذار سنة ١٩١٨م ووصلت إلى عين غزال ثم خيمت "بالصولاغ" في منطقة قرية "التبه" على بعد ميلين من "البلد" مركز سنجار، وفي هذا المكان انذر قائد الحملة الحاج ابراهيم بك اليزيدية بتنفيذ ثلاثة شروط، وكل الانذار موجهاً تحديدا إلى حمو شرو وكانت هذه الشروط[٢]: على ان يحضر ٢٢ من رؤساء ايزيدية جبل سنجار، تسليم اللاجئين الأرمن

١- حسن ويس يعقوب، سنجار في العهد العثماني، رسالة ماجستير، جامعة الموصل كلية الآداب، ١٤٢١ هج، ٥٢.

٢- محمد امين العمري، تاريخ حرب العراق خلال الحرب العظمى سنة ١٩١٤ - ١٩١٨م، ج ٣، (بغداد، ، (١٩٣٨)، ص.

لغرض قتلهم لانهم يعارضون الدولة العثمانية وكذلك تسليم ما بحوزتهم من أسلحة ومعدات حربية ولاسيما البنادق الا في اليزيديين رفضوا الشروط وصمموا على المقاومة[1]

ويقول الدملوجي: باشرت القوات العثمانية بأعمالها العسكرية إذ دمرت قرية التبه بالمدافع الجبلية ثم توجهت إلى "البلد" مركز سنجار وبعد قتال عنيف بين الطرفين ترك اليزيديون البلد" وهربوا إلى القرى المجاورة ودخلت القوات العثمانية "البلد" واعمل الجنود فيه سليا ونهبا واستمرت القوات العثمانية بهجومها بعد البلد إلى القرى في منطقة سنجار فكانت هذه القرى تسقط واحدة بعد الأخرى بيد القوات العثمانية، وتتوالت هزائم الإيزيدية قرية بعد أخرى، لقلة العدد والعدة حيث سقطت قرية "قزل كند وو "زرافكي و"حمي كوجك" و"جنعان" و"كابارة" و"قصركي وعلى هذا المنوال وصلت القوات العثمانية إلى قرب قرية "جدالة" وكانت هذه القرية مر وحصن زعيمهم حمو شرو وكانت القرية تمتاز بالحصانة ولاسيما ان جهتها

١- لقاء مع المعمر محما عفدو في قرية بيبان، يوم ١- ١٠- ٢٠٢٤.

الشمالية ملتصقة بالجبل إلا ان اليزيديين رغم ذلك لم يستطيعوا المقاومة وانهزموا مع زعيمهم حمو شرو إلى قرية "كرسي" الحصن الثاني لهم إلا ان هذا الحصن لم يصمد أيضا وفر من نجا مع حمو شرو إلى قمة الجبل، وتابعت القوات العثمانية مسيرها إلى ان وصلت إلى موقع البحارة" من جهة الغرب وقرى السموقة وعشيرة القيران من جهة الشمال الغربي وتعد هذه المناطق اقصى حدود جبل سنجار، وفضلا عن هذه القرى فقد ذكر الدملوجي اسماء قرى اخرى وقعت بيد القوات العثمانية هي: "الحليقية"، "جفري"، "يوسفان"، "طرف[1]".

وأضاف الدملوجي: كانت سنجار قبل وصول حملة الحاج إبراهيم بك منقسمة إلى قسمين متعاديين قسم كان برئاسة حمو شيرو والآخر كان برئاسة داؤد الداؤد، وكانت الصراعات قائمة بينهما على قدم وساق، وما أن وصلت القوات العثمانية إلى سنجار حتى نبذوا ما كان بينهما من خلاف واستعدوا للقتال إلا ان هذا لم يفد أمام القوات العثمانية وحينما علم رؤساء اليزيدية ان المقاومة صعبة امام هذه القوات عرض عدد منهم دخالتهم على الحاج ابراهيم بك فقبلها منهم وكان من هؤلاء: حجي

١- صديق الدملوجي: اليزيدية، الموصل ١٩٤٩، ص ٥١٣.

بن خضر محمد كهية رئيس الهبابات وداؤد الداؤد رئيس المهركان وحسين برجس كبير بيت خالد، وأبي حمو شيرو وجماعته الفقراء أن يستسلموا وبقوا إلى النهاية[1]. وبعد ان اخذ الحاج ابراهيم بك المال والأسلحة غادر الجبل إلى "البلد"، وقبل ان يرحل الحاج إبراهيم بك من سنجار طلب من رئيس عشيرة الباباوات المسلمة زكر بن عبد العزيز ورئيس عشيرة المندكان المسلمة جردو اغا بن باشوك اغا مبالغ من المال باسم التكاليف الحربية وطلبا منه ان يمهلهما ثلاثة أيام فلم يقبل منهما ذلك وأمر بقتلهما وتم ذلك، كانت هذه الحوادث تجري مني على كتب، وقد اتيت الجبل قبل هذه الحملة ببضعة أيام واقمت في قرية "دهولي" عند صديقي حسين برجس كبير بيت خالد... ولما لم اطق صبرا على البقاء غادرت الجبل...[2]. وبسبب حاجة الحكومة العثمانية إلى القوات العسكرية لظروف الحرب العالمية الأولى صدرت الأوامر من القيادة العامة إلى الحاج إبراهيم بك بالرجوع من سنجار والتوجه إلى كركوك للقتال ضد القوات

١- الدملوجي، المصدر السابق، ص ٥١٣.

٢- الدملوجي، المصدر السابق، ص ٥١٤، وكذلك المولى، ص ٥٥.

البريطانية، وبذلك انتهت هذه الحملة في يوم ٢٦ نيسان سنة ١٩١٨م.

وبعد مغادرة الحاج إبراهيم بك سافر كل من والي الموصل ممدوح بك وقائممقام تلعفر منير بك والسيد عبد الله السيد وهب "عبد الوهاب" والحاج يونس افندي آل عزير من رؤساء تلعفر إلى سنجار لحل مشاكل اليزيدية وتسويتها اداريا واشترك معهم قائممقام سنجار محي الدين بك وقد تكبد اليزيديون كثيرا من القتلى والجرحى خلال الحركات المذكورة، كما ان القوات العثمانية تكبدت بعض القتلى والجرحى أيضا[1].

ومختصر ما سبق أن موقف الكورد الإيزيديين كان إنسانياً مشرفاً إزاء الأرمن زمن المجازر التي ارتكبتها السلطات العثمانية بحق الأبرياء، وحتى أن هنالك من الإيزيديين من دفع حياته ثمناً لتلك المواقف، إذ سعى الكرد الإيزيديون بملء إنسانيتهم وتعاطفهم إلى إغاثة الأرمن في محنتهم الدامية، وعملوا جاهدين لاحتوائهم وتوفير سبل العيش وصون أرواحهم وحقن دمائهم،

١- أحمد، إبراهيم خليل، ولاية الموصل دراسة في تطوراتها السياسية ١٩٠٨-١٩٢٢، رسالة ماجستير كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٧٥، ص ١٨٨.

برغم تهديدات وحملات الدولة العثمانية المتكررة على مناطقهم. لجأ الأرمن إلى القرى الإيزيدية، لكن القوات العثمانية بدأت تلاحق الإيزيدية، وتم إبادة قبيلة باسان الإيزيدية بالكامل لإيوائهم المطران آدي شير وسكان ثلاث قرى مسيحية.

وكان الكاتب "يوحنا" قد كتب في موقعه: "الزعيم الإيزيدي حمو شر وأنقذ ووفر المأوى في شنكال في العراق لآلاف الأشوريين والأرمن في العراق وتركيا وسوريا وإيران وبلدان أخرى خلال الإبادة الجماعية الآشورية لعام ١٩١٥، قد رزقه الله في السلام!".

لقد أنقذ حمو شرو(١٨٥٠- ١٩٣٣) الزعيم القبلي للإيزيدية في شنكال مع مقاتليه ما يقارب العشرين ألف مسيحي خلال الإبادة الجماعية الآشورية والأرمنية لعام ١٩١٥ في جبال شنكال.

عندما طالب المطالبون العثمانيون/ الترك باستسلام اللاجئين المسيحيين، قرر حمو شرو الدفاع عن المسيحيين: "أرسل العثمانيون رسلهم إلى الإيزيديين في جبال شنكال وطالبوهم في خطاب باستسلام اللاجئين المسيحيين، وإلا فإن الإيزيديين أنفسهم سيلقون بئس العواقب.

فبادر الزعيم القبلي للإيزيدية إلى تمزيق الرسالة وأرسل الرسول مرة أخرى إلى الجيش العثماني دون ملابس، وقال: "كيف يمكنني قبول تسليم الآشوريين والأرمن المسيحيين إلى العثمانيين الذين جاؤوا لطلب المساعدة منا؟ وعدتهم وأقسم بشرفي بالدفاع عنهم وعدم تسليمهم للعثمانيين مادام الدم يجري في داخلي، إن كان هنالك ما عليَّ وعلى أبنائي أن نموت لأجله، فليكن!"

كان الإيزيديون يخفون المسيحيين في الكهوف والمغاور لشهرين أثناء المعارك، وعندما هاجم العثمانيون جنوب شنكال رد الأيزيديون بالنيران وقتلوا العديد من الجنود العثمانيين، كما فقد الكثير من الإيزيديين حياتهم..

والعديد من العائلات المسيحية ممن استقرت فيما مضى في مناطق شنكال لا تزال تعيش فيها بشكل جزئي حتى اليوم مع الإيزيديين.

لقد قتل الأتراك العثمانيون ما لا يقل عن مليون ونصف أرمني وتسعمئة وخمسين ألفاً من أبناء بونتس اليونانيين وسبعمئة ألف من الآشوريين وأربعمئة ألف من الإيزيديين.

وما زالت تركيا.... تستمر بإنكار تلك الإبادات الجماعية لعام ١٩١٥!!

في خريف عام ١٩١٥ توالت الأحداث والمصائب على هؤلاء المساكين إذ لم يرتاحوا من ظلم الطغاة بعدْ، حتى حلت بهم مصيبة الأمراض، إذ تفشت فيما بينهم الحمى المميتة وألمّت بهم بسبب الآلام التي رافقتهم وكانوا يعانون منها، وهم يسمعون أخبار أهلهم وذويهم فتنفطر قلوبهم أسىً ووجعاً، وما زاد الطين بلة أن رؤساء اليزيدين وعلى رأسهم "عاشور" رئيس منطقة ماميلة، بدأ وأهل سنجار يتذمرون من وجود الأرمن خشية أن يستفحل المرض ويمتد ويصل إلى الجميع.

ثم أمر عاشور بأن يجتمع المرضى في مكان واحد لئلا يشكلوا خطراً على الآخرين ويتسببوا بهلاك الجميع.

هنا لجأ المسيحيون إلى أصدقائهم من أهل سنجار ولاسيما نصيرهم حمو شرو الزعيم العام لمنطقة سنجار، والذي بدوره استدعى عاشور وهدّده قائلاً: أنه سيقتله إن تعرض بإساءة أو أذى لأحد هؤلاء المسيحين.

وبناء على تهديد حمو توصل عاشور إلى إبقاء المسيحيين في حارة من حارات "ماميصة" ريثما يتعافون من هذه الحمى القاسية.

ولما كان من الصعب جداً حصول المسيحين على الدواء فقد مات منهم عشرون رجلاً.. فغضب عاشور وأهل ماميصة وطالبوا بأن يغادر المسيحيون القرية.

ثم عاود المسيحيون الالتجاء إلى حمو شرو لذي نقل مكان إقامتهم وأعطاهم تلة قريبة من قريته ليسكنوا فيها، وأذن لهم بأن يبنوا بيوتاً ويقيموا فيها في الخريف، وإذا حل الشتاء يعودون إلى بلادهم ناصحاً إياهم بقوله: إن بقاءكم بالقرب مني أفضل بكثير.

ولما حل الشتاء بنوا لهم بيوتاً من اللِّبن والطين، وبنوا بيتاً كبيراً كانوا يجتمعون فيه للصلاة مع كاهن كلداني يُدعى يوسف، إلا أن هذا الكاهن لم يُقِم طويلاً إذ ترك المنطقة، وترك معهم معلماً يُدعى "فرج الله" كان يعلّمهم ويحفز معنوياتهم، وهكذا رويداً رويداً كثر عدد المسيحيين فبنوا البيوت ليعيشوا ويستقروا فيها، كما بنوا بيتاً كبيراً جعلوه مستشفى وجمعوا المرضى والمصابين فيه، وقاموا بتأسيس جمعية خيرية لجمع الخيرات والصدقات من المسيحيين لمساعدة هؤلاء المرضى.

ومع شهر آذار عام ١٩١٦ بدأ الكثير من المشردين الأرمن من مناطق الشدادة ودير الزور يأتون إلى سفح جبل سنجار من الجهة الجنوبية.

ومن جهة أخرى كان بعض المسلمين يأتون بقوافل المسيحيين ويتركونهم هناك ليموتوا من الجوع والعطش في تلك البرية المقفرة.

أما الإيزيديون الذين كانوا يسمعون هذه الأخبار، فقد كانوا يقصدون أماكن هؤلاء المشردين فيذهبون ويخطفون الأطفال ومن يتمكن منهم من المجيء معهم، ثم يأتون بهم إلى سنجار ويسلمونهم للمسيحيين ليعتنوا بهم.

فكل من عانى من تلك المذابح كان يدرك عواقبها وتداعياتها القاسية، من هنا فقد كان هؤلاء المسيحيون المتواجدون في سنجار يستقبلون المشردين برحابة صدر وفرح ويشكرون الإيزيديين لعملهم الإنساني تجاه من أصابته تلك المحنة.

وفي صيف عام ١٩١٦ أخذ المسيحيون يشتغلون في كروم الإيزيديين وحقولهم لقاء لقمة عيشهم، وغيرهم بعثوا يطلبون من ذويهم وأصدقائهم الناجين من الموت إبر خياطة وعلكة وسكر وبعض سلاسل الفضة والذهب والخواتم والمحابس والأساور وسواها وكانوا يقدّمونها لأهل المنطقة لقاء حنطة وقمح وعدس وحبوب للمؤونة

وكـانوا يتقاسـمونها مـع أهلهـم وأصـدقائهم وأفـاض الله عليهم بخيراته بغزارة.

حتى أن الرئيس حمو شرو لما رأى أرزاقهم الوفيرة دهش من أمر تحسن حياتهم وعملهم، خاطبهم بحبور وود: "بالحقيقة أنا فخور بكم أيها المسيحيين! كيف تمكنتم من تأمين مستلزمات حياتكم في حين أننا أصحاب الأرض والكروم والحقول ونعيش الفاقة والحاجة والعوز، وحتى أن أولادنا يستقرضون منكم ويستدينون منكم ما يحتاجون إليه؟!".

في تلك الظروف من الغلاء الفاحش والجوع شرع كثيرون من الإيزيديين يسرقون وينهبون كل ما يحتاجون إليه من المواد الضرورية للحياة..

فأصدر الزعيم حمو شرو أمراً محتواه: "كل من يسرق أي شيء من المسيحيين سيُسلب بيته ويطرد من البلد".

وتم تطبيق ذلك القانون على كل إيزيدي شرع بسرقة أحد المسيحيين، فازدادت صورة حمو شرو تألقاً بنزاهتها وصرامة قوانينها واستقامة مبادئها وأخلاقها، وغنمت شخصيته احتراماً وتقديراً من قبل المسيحيين والجميع، وتصدر اسمه وسمعته الصفحة البيضاء في عيون المنطقة.

مكث هؤلاء المسيحيون مدة سنة وستة أشهر يعيشون حياة آمنة مستقرة وقد توقفت سطوة الاضطهاد في ماردين، ودخلت القوات البريطانية مدينة الموصل في العراق ودب الأمن في تلك الأرض واستتب الأمان.

إلا أن هذا الوضع لم يدم طويلاً، فعندما السلطات العثمانية باستقرار الناجين من المسيحيين في حياتهم في سنجار استشاطت غضباً، وأرسلت قواتها العسكرية مدججة بالسلاح لاحتلال سنجار وتطويقها ومحاصرتها وإبادة جميع الناجيين من الأرمن هناك.

وصلت القوات العثمانية جبل سنجار وقامت بفرض حصار قوي على المنطقة، ثم أرسل قائد العسكر المدعوب- محيي الدين بك رئيس المخابرات والتفتيش في جبل سنجار كتاباً إلى الزعيم حمو شرو يقول فيه: "أرسل إلينا جميع المسيحيين الذين هربوا ولجؤوا إليك مع جميع أنواع الأسلحة التي بحوزتك، وإن لم تخضع للأمر ستحل بك المصائب وآلام مريرة لن تتخيلها، سوف نهدم بيتك وبيوت أهلك وذويك وعشيرتك جميعها".

حين قرأ حمو شرو الرسالة غضب وقال: "كيف يسمح لي ضميري بأن أسلم هؤلاء المسيحيين الذين

لجؤوا إليّ وقد أعطيتهم عهداً وأقسمت بشرفي وديني ألاّ أغشهم (لاوفيستا)، هي يمين معظم لدى اليزيديين، لن أسلم أحداً منهم ما دام في عينيَّ نور، أما في حال قُتلت وأولادي فبإمكان الأعداء أن يفعلوا بهم ما يشاؤون".

واستأنف حمو شرو كلامه قائلاً: ما أسخف وما أحقر تفكير هذا الضابط الذي أرسل يطلب سلاحنا..!! يطلب منا أن نسلمه سلاحنا بينما نبقى عزلاء وعرضة لسطوة سلاحه وعسكره".

ثم دعا زعماء العشائر في جبل سنجار وأعلمهم بأمر الضابط وأعلن موقفه بالتمرد والثبات على موقفه وقراره.

كانت آراء العشائر متفاوتة، فمنهم من قال: مستعدون للخضوع لأمر الضابط، ومنهم من رفض، حتى أقنعهم حمو شرو بقوله: "يجب أن ندافع عن أنفسنا ونرفض أن نسلم هؤلاء الأبرياء لسيوف هؤلاء الحكام الظالمين فيكونوا أغناماً وخرافاً للذبح".

ثم اختار حمو شرو بعض الفقراء من مرافقيه وذهبوا ليتجسسوا على القوات العثمانية في منطقة تُدعى "كرسه"، فرأوا ثلاثة فيالق عسكرية للقوات العثمانية متأهبة للانقضاض على الجبل وتطويق المنطقة واحتلالها.

كـان يـوم ليلـة عيـد القيامـة حيـث تقـدمت القـوات العثمانيـة نحـو الجبـل وأخـذت تطلـق نيـران البنـادق والقـذائف علـى منطقـة شـيب القاسـم حيـث يجتمـع الإيزيـديون، فـاهتزت الأرض مـن أصـوات المـدافع ودب الرعب في قلوب أهالي الجبل، ثم تقدمت القوات نحو الجبـل وحمـو شـرو ومـن معـه يترصـدون خطـواتهم ويراقبون تحركاتهم، ولما اقتربوا أطلق حمو ورجاله النار علـيهم فقتلـوا مـنهم خمسـة عشـر رجـلاً ولـم يُقتـل مـن الإيزيـدين إلا رجـل واحـد اسـمه خلـف السـنجاري، ذاك الذي ذهب ليأخذ أسلحتهم فلقى حتفه.

ولمـا رأى حمـو غـزارة عـدد القـوات المهاجمـة وأسـلحتهم، خشـي ألا يصـطادهم كمينـه، فعـاد إلـى قريتـه ودعـا المسـيحين إليـه وأخبـرهم قـائلاً: أنصـحكم بـأن تغادروا بيوتكم وتتجهوا إلى الجهة الجنوبية من الجبل حيث لا خطر هناك، خذوا معكم كل ما بمقدوركم من المؤونة والثياب والحاجات، فالعدو واقف على الباب متربص بنا ويهدّدنا بقساوة وعنف".

حمـل المسـيحيون مـا تمكنـوا مـن أخـذه وانتقلـوا إلـى الجهـة الجنوبيـة، ودخلـت القـوات العثمانيـة قريـة ماميصـة

وبدؤوا ينهبون البيوت وهجموا على قرى كثيرة في ذلك اليوم.

عند غروب الشمس بلغوا قرية أقام فيها المسيحيون، وفي أول بيت دخلوه وجدوا رجلاً شيخاً لم يتمكن من الهرب فقتلوه حالاً وسرقوا كل ما في المنزل.

أما المسيحيون الذين تركوا قريتهم وهربوا وكانوا يتسلقون الهضاب ويعتلون التلال بخوف فقد كانوا في حالة تدمي القلب من البكاء والعويل.

وبعد أن احتل العسكر قرية ماميصة وقرية حموشر، واستسلم الإيزيديون للقوات العثمانية وأعلنوا لهم الخضوع، وأقام العسكر في قرية ماميصة وبدؤوا يقومون بمهامهم ومسؤولياتهم ووضعوا في كل قرية مخفراً، ثم عادوا فارتاح أهل الجبل قليلاً.

أما العسكر الذين بقوا لحراسة الجبل فقد ملّوا من الإقامة في ذلك الجبل، ورويداً رويداً بدأ عددهم يتناقص في المكان.

هنا اشتدت عزيمة الإيزيديين فانتفضوا لينتقموا من العثمانيين، فكانوا كلما صادفوا أحد رجال العسكر العثماني يشرعون بقتله ومصادرة سلاحه حتى هرب العسكر خوفاً على حياته.

أما المسيحيون فبعد مدة غادروا المنطقة وذهبوا قاصدين عشيرة طي العربية ودفعوا مالاً لزعيم العشيرة ليحميهم من القتل والموت، ومنهم من هرب من قرية إلى أخرى حتى وصلوا نصيبين خائرين جائعين، وأما الذين بقوا في سنجار فقد عادوا إلى قريتهم وعاشوا فيها حتى مرّت العاصفة الهوجاء وزال الخطر وتوقف الاضطهاد.

وهكذا تشتتت من جديد جموع المسيحيين المسالمين الذين كانوا آمنين بفعل عنف وغطرسة وبطش الدولة العثمانية. حتى أن نصيبين أضحت اليوم خالية من المسيحيين سوى عائلة وحيدة تسكن في كنيسة مار يعقوب لتفتح الباب للزائرين، فمسيحيو المدينة من الكاثوليك والأرمن وقتل أغلبهم في الخامس عشر من حزيران ١٩١٥ يوم سيقوا إلى قرية خراب كورث المجاورة وذبحوا هناك كالأغنام، ورميت جثثهم للضواري والجوارح في البراري، وكانت من بينهم عوائل كلدانية وبعض ما تبقى من الكاثوليك والأرمن الذين التجؤوا إلى زعيم الإيزيدية حمو شرو في سنجار ملتمسين حماية أرواحهم وتحصين عوائلهم وأسرهم:

المطران آدي شير الأرمني

في ذلك الزمن كان الكرد المسلمون كانوا ذيول ومرتزقة مأجورة عند الدولة العثمانية وكانت الدولة العثمانية تتمادى عليه بالتجاوزات من خلال جندرمة الترك والعشائر الكردية المسلمة، وكان آنذاك المطران آدي شير الذي ارتدى رداء الحكمة والاتزان في التعامل مع الأحداث الجارية، فكان يسعى لتحول تصرفاته ومواقفه دون إراقة الدماء وإزهاق الأرواح واشتعال الأمور نحو الأسوأ.

يقول صديق الباسي الإيزيدي مواليد ١٩٦٣:

لقد وجه حلمي بك والي سيرت قواته في حملة عسكرية لارتكاب مذبحة ومجزرة بحق هؤلاء الأبرياء من غير المسلمين، مجزرة بحق الأبرياء غير المسلمين، اتجهت إلى الناس القاطنين في سيرت، وكان دور المرتزقة فيها يتمثل بسرقة ونهب ممتلكاتهم بعد الإغارة عليهم وقتلهم وتشريدهم من بيوتهم.

وكان كان آنذاك المطران آدي شير الدومنكاني، مواليد الموصل يتقلد أمور وشؤون ولاية سيرت، فبادر إلى اتخاذ إجراء وتصرف يحمي المسيحيين ويصون أرواحهم وممتلكاتهم وأرزاقهم، فجمع من الناس المسيحيين المتواجدين في القضاء خمسمئة قطعة ذهبية وأهدى الوالي حلمي بك إياها، وكان حلمي بك قد أقال عبد الرزاق صديق المسيحيين ورئيس البلدية عن منصبه، الذي ظل يدافع عن الأرمن ويحميهم حتى أيارمن عام ١٩١٥. ثم قام جودت بك بقيادة عملية عسكرية في حزيران من عام ١٩١٥ اتجهت إلى سيرت وتمت محاصرة المنطقة لمدة شهر، ثم طلب من آدي شير خمسمئة قطعة ذهبية لتدفع فدية للجيش مقابل حماية المسيحيين، فأخبره المطران بأنه قد سلم الوالي حلمي كل ما كان بحوزته، إلا أنه لم يقبل كلامه وأصر على طلبه بالقطع الذهبية، معتبراً أن لا علاقة له بما استلمه حلمي بك إنما يريد ذهباً لنفسه بغض النظر عن أي شيء ذهب إلى سواه، فاضطّر عنادُ حلمي بك المطران إلى لاتصال عثمان العمر الذي كانت تربطه به صداقة وعلاقة جيدة.

عند ذلك قام حلمي بك بالإغارة على القرى الأرمنية المسيحية ووجه قواته العسكرية إلى وادي القصابين في سيرت وقتل في تلك المناطق سبعمئة واثنين وأربعين فرداً أرمنياً. وبعد شهر عاد بقواته إلى المكان نفسه في الوادي وأيضاً قتل أربعة آلاف واثنين وثلاثين شخصاً أرمنياً.

ثم تقدمت العشائر الكردية نحو المنطقة وقامت بدورها في جميع القرى الأرمنية المبادة بالسطو عليها وسرقة ونهب ممتلكاتها، كما قتلت من تبقى فيها وشردت الأطفال وشتمت النساء وقامت بتدمير الكنائس وقتل الرهبان الذين كانوا فيها.

كان المطران آدي شير في كهف زيواج في الجبل محتمياً بالإيزيدية، عندما اقتحمت القوات التركية الجبل، وكانت قد وصلت إليه من معابر قرى "قلعة التل، هه ركولى، شه ر كول، سه ر بنتكا، سه ر بنا، ديرى، ديوكى".. استبسل "شمو مسطو" الإيزيدي في الدفاع عن المطران وحمايته إلى حين استشهاده. حيث تم إلقاء القبض عليه وكان قد تنكر باللباس الكردي إلا أنهم أمسكوا به وأتوا به إلى قرية العينة.

أدرك المطران أنه قد وقع في قبضتهم ولا مجال للفرار بعد الآن، فطلب أن يأتوه بالصليب وثياب الصلاة ليؤديها قبل أن يفارق الحياة فموته وشيك لا محالة، وهذا ما حدث إذ تم قتله بقطع ر أسه وأخذ رأسه إلى والي سيرت.

لكن السيد صديق الباسي الإيزيدي كان يقول: أنه بعد أن ألقي القبض على الإيزيدي شمو مسطو وقتله، سارع الترك إلى البحث عن المطران فوجدوه متنكراً بالزي الإيزيدي يلبس الشال والشبك، فأمسكوا به وساقوه إلى قرية زيوة، وهناك اعترف وطلب منهم أن يأتوه بالصليب وثياب الصلاة ليؤديها قبل قتله من قبل عشرة أشخاص، وتم نزع محبس ذهبي من يده وقطع رأسه ومن ثم أرسل رأسه إلى والي سيرت.

بعد ذلك كان على المسيحيين اللوذ بأرواحهم والرحيل عن المنطقة بشكل سري بعيداً عن مرأى الترك، وكان سمو باير قد ساعدهم وهيأ لهم وجهة السفر إلى سوريا حيث الأمن والأمان على أرواحهم في منطقة يمكنهم الاستقرار فيها بطمأنينة، وكان قد هرَّبهم على سبع دفعات متتالية فوجاً إثر فوج.

وبعد ثلاثة أشهر عاودت القوات العثمانية والألوية الحميدية إلى مناطق وقرى سيرت، فاستنجد الأرمنيون المتواجدون في قرية باسا وهنا بأوصمان آغا، الذي لم يكن بمقدوره مجابهة وتحدي والي سيرت والألوية الحميدية، وتمنع عن الإقدام على أي خطوة يجابه بها الدولة العثمانية، متذرعاً بأنه سبق وتحداها وفي حال كرر الأمر معها فإنها لن ترحمه وستقوم بقتله، وكان قد تحدث إليه "عمو قاسو": إن العثمانيين قادمون لإبادتنا فكيف نسكت لهم؟! ولسلب أرضنا وممتلكاتنا وتدنيس كرامة نسائنا فهل نقف مكتوفي الأيدي؟! في حين أننا نمتلك الأسلحة والبنادق وبإمكاننا التصدي لهم، وما يساعدنا أن طريق عبورهم إلينا ضيق سيمرون فرداً فرداً وسنصطادهم الواحد تلوى الآخر بسهولة، بإمكاننا الإجهاز عليهم فما المانع من مواجهتهم ودحرهم عن ديارنا وأعراضنا؟!

إلا أن ذلك هذا النقاش كان قد باء بالفشل، بل هو أمر منهي قبل قيام الحديث به، لأن حقيقة الأمر أن أوصمان آغا كان في قرارة نفسه يتجنب ويرفض أية مواجهة للعثمانيين، ويتحاشى الاشتباك معهم لئلا يقتل المسلمين في صفوفها ومن معهم من مرتزقة.

بنـاء علـى ذلـك تـركهم يلقـون حـتفهم ويواجهـون مصيرهم حتى أضحوا فريسة سائغة بين مخالب وأنياب العثمانيين الذين فتكوا بهم.

احتجاز المطران تحت المراقبة

نقلاً عن الأب بولس بيرو بشهادته "مذكرات الأب جاك ريتوريالدومنيك" يقول قبل تمرير الفافلة الأولى من قوافل المشردين والمهجرين من الأرمن تم توقيف المطران آدي شير، مع حراسة أحد عناصر شرطة سعرت يدعى بـ "نور الله بن مولود"، وكان الخادم "اسكندر بح الكركوكلي" قد تم قتل هأمام مقر الحكومة وظل المطران سجيناً في قبو المركز الحكومي، يلقى جميع أشكال الإهانة والذل والابتزاز، حتى أنهم وبالتهديد بالقتل سلبوه ما كان في حوزته من مال إلى جانب مال الكنيسة.

حاول أحد الآغاوات إنقاذه وحمايته من بطش الدولة "عثمان آغا" الذي كانت تربطه سابقاً علاقة ودية المطران، والذي أراد أن يقوم بموقف إيجابي مع المطران الذي أسداه الكثير من الأفضال والخدمات الجليلة في مناسبات عديدة، وعلى وجه الخصوص ما

بدر عن المطران من تعاطف إنساني ومساندة لعائلة بدر خان أمير أكراد بوتان.

حين علم عثمان آغا أمر احتجاز المطران سارع إلى نجدته وإنقاذه معرضاً حياته للكثير من المخاطر، فأرسل إلى سعرت خمسة عشر رجلاً مغواراً من رجاله مدججين بالسلاح، اتجهوا إلى منزل نور الله وأخبروه بأنهم قادمون بموجب أمر من عثمان آغا، فشرعوا ينذرونه ويهددونه، بأنه في حال لم يسلمهم المطران سالماً آمناً سيحرقون أملاكه ومزارعه وماشيته.

خشي نور على أملاكه أن تحرق فرأى أن تسليم المطران الحل الأمثل في هذا الوضع.

وهكذا مضى الرجال بالمطران متخفين في ليلة ظلماء يقطعون الدروب لست ساعات متواصلة سيراً على الأقدام حتى بلغوا القرية، حتى وصلوا إلى مقر عثمان آغا ومعهم المطران.

أما نور الدين فقد واجه غضب وسورة رؤسائه وانتظر عقابهم لمخالفة ما أوكل إليه من مهمة حراسة للمطران ومراقبته جيداً، وبرغم محاولاته في التماس التبريرات لنفسه إلا أنها ذهبت كلها أدراج سخطتهم وثورتهم عليه.

في تلك الأثناء ومع توالي الأحداث وتأزمها، فرضت الظروف والمستجدات على عثمان مغادرة قريته للتصدي لهجوم عليها من قبل أعدائه، وكان عليه أن يسارع لحماية ممتلكاته من هذا الاعتداء، وقام أحد رجال عثمان آغا بإيواء المطران في كهف في هضبة ديري بسان حرصاً عليه وخوفاً على حياته أن يقع في أيدي المداهمين أثناء انشغال عثمان آغا بالتصدي للهجوم، إلا أن محمد أفندي أخ النائب عبد الرزاق المعروف بحقده وضغينته وشرهه لدماء المسيحيين فقد قام بإخبار السلطات بهروب المطران واختفائه.

فما كان من السلطات إلا أن أرسلت كتيبة من الخيالة لملاحقة المطران وتتبع مكانه، وحدثت اشتباكات بين رجال الأمن العثمانيين ورجال حراسة المطران، ودامت الاشتباكات والاقتتال بين الطرفين في مواجهة لم تكن متكافئة بالعدد والعتاد والسلاح أسفرت عن تراجع رجال المطران وهروبهم لنفاذ العتاد تاركي المطران لوحده يلاقي مصيره بين تلك الوحوش الشرسة.

وحين اقتحموا مكان المطران ألفوه بمفرده فصبوا عليه وابلاً من رصاصهم مشبعاً بنيران حقدهم المستعر وأردوه قتيلاً غارقاً بدمائه... فتحية إكبار وتقدير لهؤلاء

الكرد الذين وبرغم ما اتسموا وعرفوا به من قسوة فإنهم أبرزوا مواقفهم البطولية ومؤازراتهم الإنسانية، وأبدوا شجاعة في الإقدام على المواقف التي تحمل لهم المخاطر في سبيل إنقاذ هذا الرجل الجليل من سطوة وهمجية العنف العثماني، واستبسلوا في الدفاع عنه برغم عدم تكافؤ العدد والعتاد بينهم وبين هؤلاء المهاجمين، كما صانوا أرواح الأرمن بكل أوتوا به من نخوة إنسانية وتعاطف مع شريك المأساة ونزيل الديار.

عزاؤنا الوحيد أن هذا الرجل المنزه العظيم قد نال راحته في الملكوت الأبدي السرمدي، فهو وإن غادر الحياة سيبقى خالداً في سماوات الخلد، وينبض ذكره في قلوبنا وعروقنا.

والرواية وفق شهادة الخوري أسقف فيليبس شويريز كالتالي: لقد تم إلقاء القبض على المطران آدي شير في أواخر شهر أيار من عام١٩١٥، وكان مسبقاً قد دفع فدية قدرها خمسمئة ليرة عثمانية للمتصرف، فهو لم يودع في السجن، وإنما بقي تحت الإقامة الجبرية في دار المطرانية تحت رقابة "صديق بدر الدين" مدير الشرطة.

وفي إحدى الليالي، قام عثمان آغا بإرسال رجاله إلى دار المطرانية لإنقاذ المطران، وكان متنكراً بالزي

الكردي، فاستطاعوا إخراجه من المكان من فوق سور المبنى وأتوا به إلى منطقة البوتان.وبعد ذلك التحق به وجهاء قرى صدخوقطمس وحديد وماركوريال، والتجؤوا إلى قرية طنزي الإيزيدية الواقعة في شمال بلق حيث يحتمون فيها بين الإيزيديين ويختبئون بعيداً عن الأنظار.

لكن حكومة سعرت ما لبثت أن اكتشفت أمره وعرفت بمكان اختبائه، فسارعت إلى إرسال قوات من الدرك التركي لملاحقته وتقفي أثره والقبض عليه.

ثم قامت القوات بمحاصرة القرية وإشعال النيران والحرائق فيها، وقاموا بقتل الإيزيديين والمسيحيين القاطنين فيها على السواء، وفي هذه الأثناء تمكن المطران من الفرار إلى الجبل ملتمساً الحماية من عثمان آغا، واستطاع الوصول عبر معبر جبلي متعرج وعر، آملاً أن تتاح له فرصة الوصول إلى الموصل.

هنا بدأ الدرك التركي بالضغط على عثمان آغا وتهديده بالقتل في حال لم يعلمهم بالطريق الذي سلكه المطران في بلوغه الجبل.

وتحت تأثير الضغط على عثمان أعلمهم بالطريق، فسارعوا مدججين بالسلاح إلى اللحاق بالمطران حتى

وصلوا إلى مكان اختبائه، وفي تلك اللحظة شعر رجال المطران المتواجدون على سفح الجبل بوصول قوات الترك فأعلموا سيدهم آدي شير وبدؤوا يطلقون عليهم النار، واشتبك الطرفان في معركة شعواء استنفذت مابحوزة حرس المطران من عتاد وذخيرة، فما كان منهم إلا أن فروا لائذين بأرواحهم، تاركين المطران للدرك حيث سيلقى حتفه على أيديهم، الذين سرعان ما ألقوا القبض عليه وساقوه معهم إلى رئيسهم لينُزل به عقابه ويصب جام غضبه عليه، فحكم عليه بالموت رمياً بالرصاص. وقبل أن يقتل المطران طلب منهم أن يتريثوا قبل قتله ويمنحوه بعض الوقت ليخلع الزي الكردي ويرتدي ثوب الأسقفي ويؤدي صلاته الأخيرة.

ثم جثا هذا الرجل الجليل على ركبتيه وقام بأداء صلاته الأخيرة. بعد أن أنهى صلاته وقف أمام الرجال، وكانت بنادقهم مصوبة إليه وقال: والآن بإمكانكم قتلي هأنذا مستعد للقاء الموت.

ثم أطلقوا خمس رصاصات على صدره وسقط صريعاً غارقاً في بحر دمائه، مسلماً روحه الطاهرة النقية إلى ربه.

هذه الرواية منقولة عن أحد الرجال الذين أطلقوا النار على المطران، وكان هذا الرجل يقوم بحراسة مدير بنك

الحكومة العثمانية وهو في طريقه إلى الموصل، ليلتحق هناك بمنصبه الجديد. وقد روي أيضاً عن المطران توقعه ورؤياه لقادم السنين، من أن الإمبراطورية العثمانية ستنتهي وينتهي حكمها في غضون خمس سنين، وهذا ما حدث الفعل.

كيفية إنقاذ المطران

نقلاً عن الأب بولس بيرو: أن أحد آغوات قرية طنزي الإيزيدية "عثمان آغا" قد حاول أن ينقذ المطران آدي شير، كردٍّ معروف للمطران لما أسداه من خدمات كثيرة، وعلى وجه الخصوص ما بدر عن المطران من تعاطف إزاء عائلة بدر خان أمير أكراد بوتان.

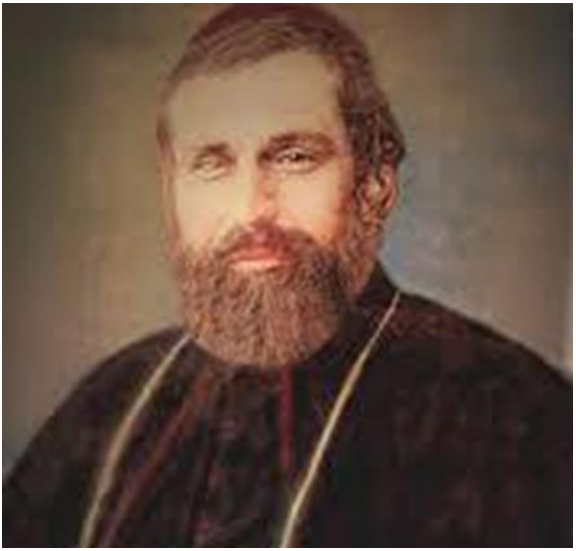

وحين علم عثمان آغا بأمر توقيف المطران آدي شير، سارع إلى إنقاذه برغم صعوبة الأمر والذي قد يعرض حياته للمخاطر.

وأرسل خمسة عشر رجلاً مدججين بالسلاح ووجههم إلى سعرت. ويذكر السيد شمو قاسوا نقلاً عن والده: أن آدي شير كان قد استنجد بعثمان عمر التنضي الذي كان مناوئاً للعثمانيين فيما سبق وثار عليهم.

فأرسل عثمان مجموعة رجال يبلغ عددهم أحد عشر رجلاً وكانوا معظمهم من الإيزيدية الباسية، وهذا ما كان يبعث الطمأنينة في قلب المطران. واتجه هؤلاء الرجال نحو سيرت وتمكنوا من إنقاذ المطران والإتيان به سالماً، وكان هؤلاء الرجال:

شمو مسطو، عمو قاسو، سمو بابير، خلات مراد، ناصر مراد، بالإضافة إلى اثنين من كرفان الإيزيدية هما "محو فيتو وسعيد إبراهيم" كانت فكرة إنقاذه تقوم على الحفر أسفل العرفة التي كان فيها، فحملنا معنا أدوات الحفر ومضينا حيث كانت الحراسة مركزة على المكان وغرفة المطران المبنية من الكلس وذات الشابيك الحديدية، وكان الجنود العثمانيون والمرتزقة يطلقون

الصفارات في الهواء، ولذلك لم نتمكن من الاقتراب من القصر إلا بعد حلول الليل، وبعد منتصف الليل حيث مضى الجميع إلى النوم وخيم على المكان جو من الصمت والهدوء، ولم يتبق إلا عدد الحراس، هنا وجدنا فرصتنا في التسلل عبر هذا الظلام الدامس، ثمة نافذة خلفية ذات قطع حديدية قمنا بنزعها ومن ثم تسللنا من خلالها. وصلنا حيث شئنا، كان مسطو طويل القامة ولذلك رأينا أن ننزله من يديه إلى الأسفل ثم نفلته، أما المطران فقد كان طويل القامة بديناً وكانت هنالك صعوبة كبيرة في إخراجه من النافذة، تحدث شمو عن تلك المحاولة: أن كون المطران طويل القامة بديناً وكان مختبئاً في قبو صغير، الأمر الذي خلق صعوبة وإجهاد له في تخليصه من المكان، حتى أن جسده تعرض لجروح وخدوش ونزف دماً وتشربت ثيابه بالدم، فاضطررنا إلى نزع ملابسه وإلباسه الثياب البوتانية، الشال والشبك، وخرجنا ملثمين متخفين، وكان هنالك عدد من العسكر من دار المطرانية ومن ديركا. وظل المطران في قلق وتوتر من أن يكشف أمره ويلقى القبض عليه، حتى أنه طلب أن يكون معه رجل مسلح في الجبل ليقوم

بمرافقته، وكانت هذه مهمة شمو مسطو الباسي إذ تكفل بأمر إيصاله إلى بر الأمان وحمايته.

ثم قدم أوصمان عمر بشا آل بدرخان التنزي من قرية طنزي وبتوصية من المطران آدي مسؤولاً لدومنكان سنة ١٩١٦ بسبع قرى أرمنية هي "ديرك، ديرك العليا، قنياز، قوتمس، كنياس، خنيسة، بهنكوف، حديد". واتجهوا إلى قرية باسان ومكثوا إلى حين عام ١٠١٦/٥/١٤." الأول من شهر أيارالشرقي" بعد أن دفعوا لأوصمان باشا ما لديهم من الذهب والمال. في حين أن إدمون لاسو يذكر: أن عثمان عثمان قد قام بإرسال أخيه محمود آغا برفقة خمسة عشر رجلاً من رجاله الشجعان في يوم السبت في الخامس من شهر حزيران ٢٠١٥، مية مع اثنين من مسيحيي قرية حديد، ليمضوا بصورة سرية إلى سيرت "سعرد" ويقوموا بتولي أمر تهريب المطران. ولدى وصولهم سعرد الواقعة شمال طانزي الواقعة على مسافة تقدر بقطع ست ساعات مشياً على الأقدام، وقاموا بتهديد الشرطي المكلف بمهمة حراسة المطران، ثم دخل محمود آغا ورجاله في دهمة الليل إلى دار المطرانية وألبسوا المطران الملابس الكردية وأخرجوه من السياج الخلفي للكنيسة واتخذوا معاً طرقاً ذات

منعطفات كثيرة لئلا يُفضح أمرهم، أما الحارس فأراد تبرئة نفسه مما حدث ولذلك فقد أعلم المسؤولين بالأمر، واتجهت الشرطة إلى مطارتهم، وحين التقتهم جرت بينهم مناوشات، إلا أن رجال الآغا محمود تمكنوا من الهرب والخلاص. وكان أحد رجال الآغا إيزيدياً من قرية باسان يدعى بـ سمو، هذا الرجل قام بحمل المطران على ظهره وانطلق به بعيداً عن المفرزة والأنظار، حتى أنهم في مسيرهم الشاق الذي دام لساعات طوال، مروا بكثير من مجاري الماء والمضايق الجبلية وتجاوزوها باحتمال وصلابة.

إيصال المطران إلى المناطق الإيزيدية

نقلاً عما رواه الأب بولس بيرو: إن عثمان قد اضطر إلى مغادرة قريته للتصدي لإغارة قام بها أعداؤه بهدف نهب ممتلكاته، لكن لخوفه الشديد على المطران فقد ارتأى أن يخبئه في كهف في الهضبة، لكن محمد أفندي أخ النائب عبد الرزاق المعروف بحقده المتجذر فيه على المسيحيين إلى حد سفك دمائهم بلا ارتواء أخبر السلطات العثمانية بأمر اختباء المطران في الكهف، فحشدت كتيبة مدججة بالسلاح والخيالة وأرسلتها إلى الهضبة للبحث عن المطران وإلقاء القبض عليه. وفي إحدى الليالي أرسل عثمان آغا رجاله إلى دار المطرانية، وتمكنوا من إخراجه من فوق سور المبنى وهو يرتدي الزي الكردي التنكري، واتجهوا به نحو البوتان، كما التحق به وجهاء قرى "صدخ، قطمس، حديد، مار كوريال"، وهناك كانوا في حماية الإيزيدية في طنزي، إلا

أن أمرهم لم يلبث أن كشف فسرعان ما علمت حكومة سعرت بوجودهم، فطاردتهم واكتشفت مخبأ المطران.

وهكذا كانت نهاية المطران آدي شير بعد أن قدم خدماته المعرفية والفكرية وأعماله ومواقفه الإنسانية الفاضلة لأبناء شعبه ولأمته الأرمنية المسيحية، هذا الإنسان العالم بأمور الدين السالك إلى نور ربه بنقاء سريرته وعمق بصيرته لم ينسجم نقاء لبه مع شرور أعدائه والسواد يمقت البياض لأنه يكشف حلكته وظلاميته، عدا عن ذلك فقد كانت له إسهاماته وإنجازاته على صعيد التأليف والنشر وعلى وجه الخصوص ما يتعلق بالتاريخ: نذكر له تاريخ كلدو وآثور بمجلدين وسيرة أشهر شهداء المشرق القديسين باللغتين العربية والفرنسية، إلا أن إسهامه الأكثر أهمية والأقرب إلى نفسه ومن أوائل من خاضوا فيه بشغف هو دراسة المخطوطات في المنطقة والبحث فيها، فقد قام بتصنيف المخطوطات في سعرت وآمد وماردين والموصل وألقوش، كما نقح ونشر مخطوطة سعرت للمرة الأولى والتي تعود بقدمها إلى القرن السادس الميلادي، وثمة من روى عنه أنه قبيل مقتله كان يسعى إلى إخفاء مخطوطات دير مار يعقوب.

يقول الأب بولس بيرو: التقى رجال الأمن العثماني بحراس المطران في ديري بسان وحدث اشتباك لم يدم طويلاً في معركة غير متكافئة بالعدد والذخيرة العتاد، أسفرت عن تراجع الحراس وهروبهم تاركين المطران يلقى مصيره بين مخالب الوحوش وفريسة سائغة تروي ظمأهم للدماء، فما إن وجدوه بعد فرار حراسه حتى انهالوا عليه بوابل من الرصاص فسقط صريعاً، ثم صعدت روحه الطاهرة إلى ملكوت ربها الأعلى، وفارق الحياة هذا المؤرخ الكبير الذي حبا أمته الأرمنية والإنسانية نسغ فكره وروحه.. وتحية إجلال للأكراد المغاوير، لهؤلاء الذين على قسوتهم فإنهم أثبتوا شهامتهم ونبلهم حين تفانوا واستبسلوا في صون روح هذا الإنسان العظيم حتى آخر لحظة، إلا أن قوة الظلم المتمثلة العثمانية فاقتهم عدداً وسلاحاً وذخيرة، وتفوقت بوحشيتها وعنجهيتها فلم تتورع عن سحل هذا الإنسان المبجل بفكره وروحه السامقة.

نقل إدمون لاسو عدداً من شهادات من كان على الحدث: منها شهادة عيان مسبية اسمها "استير" وأختها الصغيرة "وارينا".

بعد أن ألقت الدولة العثماني القبض على المطران اقتادوه إلى قرية "تل ميشار" المسيحية التي تبعد عن طنزي مسافة مسير ساعة، والتي قام بإحراقها وإبادة أهلها المسالمين الآمنين والعزل من السلاح.

فبعد أن صدر قرار إعدام المطران آدي شير سِيق إلى منطقة " العين" أو "عيني" وهي منطقة فيها نبع ماء في الجبل وتبعد عن سعرد مسافة مسيرٍ ليوم واحد.

تسرد الفتاة استير ما رأته بأم عينها وهي تسير في طريق العين مع أختها وارينا قالت: إن وضعه كان مؤلماً يعتصر القلب له وجعاً وقهراً لما لقاه على أيدي تلك الضواري التي لا تعرف الرحمة والشفقة ولا تربطها بالإنسانية أية صلة، إذ لم يردعهم رادع أو يعزهم وازع لأن يرأفوا بقدره وروحه وإنسانيته، كان يمشي بعناء بضعف شديد يجر خطواته المثقلة بالأوجاع لشدة ما قاساه من التعذيب وعاناه من الضرب المبرح، كانوا يضربونه بأعقاب بنادقهم، ويوجهون له أقبح وأقسى الإهانات والمذلة والسخرية، كانوا يقتلعون شعيرات لحيته بأسلوب قذر كلبِّهم، ويطلقون النار من مسدساتهم أمام وجهه لإرهابه وحرق أعصابه، في حين أنه كان جثة هامدة تمشي، ثم اتجهوا إلى خارج المدينة إلى تل يقع

بين "دير شوا، السبعة" و"عيني" حيث كان مكان إعدامه مع أحد رجال عثمان آغا ويدعى "جميل كونى" البطل البحري الكردي العائد إلى الأصول الإيزيدية، الذي جاهد وناضل في سبيل القضية الإنسانية وقدم دمه افتداء لها، ومذابح الأرمن تشهد بأعماله البطولية أيان كان العثمانيون يرتكبون المجازر في مناطقهم. لقد أنقذ المئات منهم بشجاعة صنديد لا يخشى الموت، فكان شوكة في حلوق العثمانيين، الذين ينظرون إلى تلك الأقليات المسالمة نظرة ازدراء وبغض، فلا تسكن مراجل حقدهم إلا بإهراق دمائهم.

لقد ورثوا هذه البغضاء عن جدودهم وأورثوها لأبنائهم وأجيالهم فكانوا ابتلاء البشر في الأرض..

تشارك الشعب الإيزيدي والشعب الأرمني في تحمل تداعيات مأساة الإبادة، إذ يجمعهما تاريخ دموي وجزار واحد وتآزر مشترك، حتى أن وحدة المكان والعيش تجمعهما فكثير من القرى يقطنها النسيجان، لكون التاريخ يجمعهما وخير بيان من الماضي البعيد التعاضد بينهما في زمن الحرب العالمية الأولى أيان كانا يتقاسما الموت والحياة والقلق والنجاة والمصير الذي يجمعهما معاً.

ويذكر التاريخ جانكير آغا المندكاني الإيزيدي، الذي قاد بالتعاون مع القوات الأرمنية حملة كبرى ضد الجيش العثماني في منطقة سَرحد وبحيرة وان. ومن قبل رجال الإيزيدية تم إنقاذ المطران آدي شير وجماعته من سجن ماردين، وإيواء سبع قرى أرمنية في قرية باسان الإيزيدية، وعلى إثر ذلك أبيدت القبيلة الإيزيدية في ١٩١٦/٥/١٤..

سمى قائد جيش بطرس آغا في هكاري ابنه "خديدة" وكانوا ينادونه بـ أبي خديدة، نسبة إلى خديدة الإيزيدي الذي عرف بشجاعته وقوته وبأعماله البطولية التي سجلها في المعارك وكانت فخراً لشعبه.

جميل كونى وتعاونه مع الأرمن

يعود جميل كونى بأصوله إلى الإيزيديين، وهو كردي مسلم، ولد في عام ١٨٩٢ في منطقة عفرين في قرية "جيندريس" وعاش واستقر في حلب، وفي والده في طفولته وكان عمره أربع سنوات، وعاش مع والدته "أمينة علي" وكانت من قرية رجو في قرية هوبكا، وجدت نفسها تحمل مسؤولية الاهتمام به وتربيته بعد وفاة والده، فاهتمت بدراسته حتى تمكن من إتمام مراحله التعليمية، وعلى الصعيد الدراسي دخل المدرسة الحربية البحرية في إستنبول عام.

ودخل جميل كونى المدرسة البحرية في استنبول عام ١٩٠٩ وتخرج منها برتبة أول ملازم مهندس بحري حربي ١٩١١، وفي العام ذاته تقدم إلى كلية الحقوق في دارلفونون إلا أنه ترك الدراسة فيها ليستمل الدراسة العليا في الهندسة الحرية قسم الميكانيك في بريطانيا، وحقق نجاحاً باهراً في دراسته وعمله.

كان له دوره في حرب البلقان إذ شارك فيها في عام ١٩١٢ ونال مكافأة تكريم لشجاعته في تلك المعارك. وفي بداية الحرب العالمية الأولى ومع حملات الإبادة الجماعية للأرمن تم تعيينه في منطقة بيراحوكا روحا

١٩١٥، وفي بيرجيك تتم تعيينه مديراً للورشة البحرية لبناء القلاع والتحصينات للجيش.

وكانت تلك الورشة قد أقيمت لأداء الخدمات في الجيش، كبناء الجسور فوق مجاري الماء لعبور السفن على نهر الفرات أو سوى ذلك من مهام وإجراءات.

وحين وقعت مجازر الدولة العثمانية بالأرمن عام ١٩١٥، كان جميل باشا قائداً في الجيش العثماني في منطقة رها بكوردستان تركيا، وفي الوقت ذاته كان مسؤولاً عن مصنع السفن العثمانية، وفي ذلك الوقت قام الجيش العثماني بإشراف جمعية الاتحاد والترقي، بارتكاب عمليات القتل والمقابر الجماعية بحق الأرمن على الجانب الآخر من نهر الفرات، بالقرب من مدينتي الرقة ودير الزور في سوريا.

وانطلاقاً من الإحصاءات والدراسة التي أجراها الأرمن بعد تلك الحملات العسكرية، تبين أن جميل باشا كان قد أنقذ مئات الأرمن من الوقوع في شراك العثمانيين، لقد خلص مئات الأرمن الذين أتى بهم الجيش العثماني من نواحي ديلوك أو عينتاب كرهائن بعد إغارتهم على مناطقهم.

ما قام به جميل أنه لم يدعهم يعبرون إلى الجانب الآخر من نهر الفرات، وإنما حماهم ورعى مصالحهم بتوفير فرص ومجالات العمل للكثيرين منهم في المصانع التي يديرها ليستقروا بأمان وفي الوقت ذاته يتمكنون من تأمين مورد عيش وإنتاج..

وسجل أسماء هؤلاء القادمين من ديلوك كمضيفين أو عمال في ورشة عمل تعود إليه.

فيما بعد أرسلهم إلى مناطق ومدن أخرى كمنبج وسري كانييه، جرابلس، وحلب. كما سعى لتأمين المواد الغذائية لعدد كبير من الأرمن عن طريق جمعية الهلال الأحمر.

وبذلك تمكن من حمايتهم وتأمين مصادر أرزاق وعمل لهم، وكان هؤلاء الأرمن ينصبون خيامهم عند الفرات ويعيشون بعضهم إلى جانب بعض ويبقى أفراد الأسرة والعائلة معاً دون تشتت. لم يقتصر عمله على حماية الأرمن من الوقوع في أيدي الدولة وإنما أيضاً سعى إلى متابعة عيش الناس ومساعدتهم في الحصول على الملابس والثياب، كما عُني بالمسنين منهم من الشيوخ والعجائز وسعى إلى تأمين مستلزماتهم الضرورية بالتعاون مع جمعية الصليب الأحمر، وإلى جانب ذلك

فقد قام بحماية هؤلاء الجنود الفارين من الجيش العثماني.

لقد جازف بنفسه وعرضها للمخاطر إلا أن جرأته وشجاعته وتأصل الإنسانية في جذوره أشياء دفعته إلى إغاثة الملهوف ونجدة المظلوم، فاقتحم اندفاعه القوانين واخترق الظروف كلها، في الوقت الذي كانت قرارات الاتحاد والترقي تؤكد فيه على أنه: "من يحمي أرمنياً فإنه سينال مصير الأرمني نفسه"، ومع ذلك تجاوز القرارات ووفقاً لمقال بوغاريان المنشور في "Ayntabagank " من العوائل التي أنقذها جميل كونى في ١٩٧٤:

"سنانيان، آرتو كوروكويان، سركيس كيبجيان، هوفاهانس، بولاديان أفاكيان، هوفهانز، وكيفورك، أنوروكيان"

فيما يخص حياته الاجتماعية العائلية تزوج من ابنة راهب أرمني اسمها "ديكرانوهي كوليزيان"

وكان ذلك من اللافت من حيث أنه كان مسلماً بينما زوجته تنتمي إلى الدين المسيحي، إلا أنها حافظت على انتمائها وتمسكها بعقيدتها، وقد رُزقا بولدين وفتاتين.

أدى جميل عمله في الجيش العثماني الخامس وأسدى الأرمن خدمات ومواقف لا يحصيها العد لا

ينفكون يشكرونه لأجلها ويثمنونها، من ضمنها أنه يسر للمنفيين والمشردين الأرمن معابر ومسالك العبور إلى سوريا..

كان التساؤل.. ماذا يمكن أن يضمر العثمانيون له بعد تركه لمنصبه والغدر ديدنهم، أيقتل من قبل قادتهم أم لا؟!

كريم النفس حذق وذكي وإنساني بالقدر الذي مكنه من استثمار منصبه ما بوسعه في سبيل حل الأزمات الإنسانية، فكان يمضي مدفوعاً بالحس الإنساني إزاء شعب منكوب..

إنه أحد الأعضاء المؤسسين لجمعية المحاربين في حلب عام، ١٩٢١ التي أفادت الكثير من الناس، حتى أنه كانت له اهتماماته في مضمار الكتابة والشعر، خلف إرثاً إنسانياً واجتماعياً وثقافياً هاماً، ويجيد اللغات التركية والعربية والإنكليزية وبمستوى أقل الألمانية، إلى جانب لغته الأم الكردية، رحل إلى ملكوت ربه في ١٩٦٧/٢٥ وطوى الخامسة والسبعين من صفحات حياته. إن وحدة المأساة والظالم، كانت الجامع والقاسم المشترك بين الشعبين الأرمني والإيزيدي، وهذا ما وجه الدافع نحو التشارك الإنساني الوجداني في بوتقة واحدة

وتقاسم الألم والنضال في سيل الآخر، فكلاهما نال الحصة الوفيرة من مفرزات وسموم الضغينة العثمانية للأقليات المختلفة باسم الدين للنيل من اقتصادها ومواردها وخيراتها ونسائها، وكثيرة العوائل التي قامت بإيواء الأرمن، وبالمقابل هنالك من تملكه الخوف من تهديدات العثمانيين التي أوقعت بلاءها على كثير من القرى التي عارضت أوامر الدولة، فنالت ما نالته من حملاتها العسكرية، وتبقى المواقف حية خالدة تنبض في ذاكرة الحياة.[1]

١ حول مساعدة جميل كوني للارمن نشرت مقالاً مطولاً بحلقتين في موقعي الالكتروني.

الكاتب في سطور

- داود مراد ختاري/ مواليد ١٧/٥/١٩٦٤م، قرية ختارة/ قضاء تلكيف محافظة نينوى (الموصل).
- خريج كلية التربية/ الموصل (بكلوريوس تاريخ).
- ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر.
- باحث في مركز دراسات الإبادات الجماعية/ جامعة دهوك
- مسؤول قسم الدراسات والبحوث في الهيئة العليا لمركز لالش الثقافي في دهوك، وسكرتير مجلة لالش الفصلية.
- درس مادة التاريخ في إعدادية ختارة المختلطة في قرية ختارة/ القوش.

- سنة ١٩٨٦م، عين في سلك التعليم بناحية الإسكندرية، قضاء المسيب، محافظة بابل.
- سنة ١٩٨٨م سجن ونفي لمدة سنتين وشهرين إلى ناحية (أم قصر) على الحدود الكويتية نتيجة كتاباته ومواقفه القومية.
- رئيس مركز لالش الثقافي/ ختارة، لخمس مؤتمرات انتخابية.
- عضو اتحاد الأدباء والكتاب الكورد/ دهوك.
- عضو نقابة الصحفيين الكورد/ موصل.
- رئيس تحرير مجلة (زمزم لالش)/ سابقاً.
- نائب رئيس تحرير جريدة (صوت لالش) في دهوك
- عمل في الإشراف والمتابعة التربوية في تربية تلكيف/ الموصل، لمدة أربع سنوات.
- منذ سنة ١٩٨١ يكتب في الصحف والمجلات في العراق وإقليم كوردستان وأوربا، مثل (هاوكارى، عيراق، خبات، كانيا سبى، زمزم لالش، نور لالش، صوت لالش، خازر، رؤز في ألمانيا، جرا في هؤلندا، ئه فرؤ..... الخ).
- قدم نحو مائتي محاضرة ثقافية وتاريخية في ٢٥ دولة.

- ألقى العديد من المحاضرات في المؤسسات والجامعات العالمية.

من نتاجاته المطبوعة، في هذه المؤسسات ودور النشر:

١- العيد الكبير للإيزديين الكاتب والروائي الألماني (كارل ماى) ترجمة إلى اللغة العربية، دهوك ٢٠٠٧م.

٢- نامرم (ديوان شعري) دهوك ٢٠٠٧م.

٣- هةر سترانةكىَ ضيرؤكةك، (لكل أغنية قصة) معهد التراث الكوردي/ دهوك ٢٠١٠م.

٤- أديب معوض، الكورد الإيزيدية، ترجمة إلى اللغة الكوردية، جامعة دهوك ٢٠٠٨م.

٥- د. عبدالسلام التلالوة، توند وتيذي دذي ذنان (العنف ضد المرأة)، ترجمة إلى اللغة الكوردية، بتعضيد من جامعة دهوك ٢٠١٠م.

٦- الإيزيدية في الوثائق العثمانية (١٨٨٦-١٨٩٣م)، جامعة دهوك ٢٠١٠م.

٧- الحملات والفتاوى على الكورد الايزديين في العهد العثماني، دار سبيريز في دهوك ٢٠١٠م.

٨- مةم وزين ل دةظةريَن ئيَزديان (قصة مم وزين في مناطق الإيزيدية)، معهد التراث الكوردي/ دهوك ٢٠١١.

٩- الإيزيدية في المخطوطات الكلدانية، مديرية أوقاف الإيزيدية- بغداد .٢٠١١
١٠- معبد لالش والمراسيم الدينية الإيزيدية، مديرية أوقاف الإيزيدية- بغداد .٢٠١١
١١- جون س گيست، ذيان ل ناف كوردان دا (ميَذوويا ئيَزديان) تاريخ الإيزيدية، ترجمة إلى اللغة الكوردية، وزارة الثقافة، مديرية الطبع والنشر، دهوك .٢٠١٢
١٢- د. أديب معوض، الأكراد في سوريا ولبنان، ترجمة إلى اللغة الكوردية، وزارة الثقافة، مديرية الطبع والنشر/ دهوك .٢٠١٢
١٣- المأساة في مذكرات الأديب أحمد ميرازي، ترجمة إلى اللغة العربية، دار سبيريز في دهوك .٢٠١٢
١٤- مؤلفات الدكتور أديب معوض حول كورد وكوردستان، جامعة دهوك .٢٠١٣
١٥- خمس وثمانون وثيقة عثمانية عن مأساة الإيزيدية. الطبعة الأولى، مطبعة هاوار، مركز لالش الثقافي/ دهوك. ٢٠١٣
١٦- خمس وثمانون وثيقة عثمانية عن مأساة الإيزيدية. الطبعة الثانية، مطبعة خاني/ دهوك .٢٠١٤

١٧- الإيزيدية في الوثائق الفرنسية، مطبعة خاني، دهوك ٢٠١٤.
١٨- الصراع بين ولايتي الموصل وديار بكر حول جزيرة بوتان وسنجار في الوثائق العثمانية، (١٨٣٨-١٨٤٨م)، مركز لالش الثقافي ٢٠١٦. (بالأصل رسالة ماجستير).
١٩- دادطةهكرنا شيَخ سةعيدىَ ثيران بةرامبةر دادطةها (الاستقلال) ل دياربةكر ١٩٢٥. محاكمة شيخ سعيد بيران أمام محكمة الاستقلال، باللغة الكوردية، مطبعة خاني، دهوك ٢٠١٤..
٢٠- التعايش السلمي بين المكونات في كوردستان/ الشيخان - نموذجاً- (بالاشتراك مع آخرين) مطبعة هيفي، أربيل ٢٠١٣.
٢١- علاقة زعيم الآشورية آغا بطرس مع الإيزيدية، مطبعة خاني، دهوك ٢٠١٤.
٢٢- مجزرة كوجو - الجزء الأول باللغة الكوردية (لهجة سوران) ترجمة طه سليمان، مركز دراسات الجينوسايد والأنفال، أربيل ٢٠١٥.
٢٣- علي بك الكبير - باللغة الكوردية لاتيني، أولدنبورك، ألمانيا ٢٠١٤.

٢٤- إبـادة قريـة كوجـو، باللغـة الإنكليزيـة، سـليمانية ٢٠١٧.
٢٥- فرمانا كوجو، باللغة الكردية سوراني، أربيل ٢٠١٩.
٢٦- الإيزيدية والموصل في أول موسوعة (انسكلوبيديا) عثمانية، مؤسسة سبيريز للطباعة والنشر/ دهوك ٢٠١٦.
٢٧ - حملـة الإبـادة/ معهـد التـراث الكـوردي/ دهـوك ٢٠١٨.
٢٨- إبادة الإيزيدية في شنكال ٢٠١٤/ باللغة الكوردية/ معهد التراث الكوردي ٢٠١٧.
٢٩- سـترانيَن فلكلـوري ذ دةظـةرا شـيَخان، (أغـاني فلكلوريـة مـن منطقـة شـيخان الإيزيديـة). معهـد التـراث الكوردي دهوك ٢٠١٣.
٣٠- جـون س گيسـت، تـاريخ الإيزيديـة، ترجمـة إلـى الكرديـة/ لاتينـي، دار الطباعـة والنشـر/ وان - تركيـا، ٢٠٢١.
٣١- حملـة الإبـادة (فرمـان ٧٤) باللغـة الألمانيـة جامعـة بوتسدام / برلين ألمانيا ٢٠٢١.
٣٢- الأمير إسماعيل جول بك، طهران، ٢٠٢١.
٣٣- الشهيدة ماركريت جورج، طهران، ٢٠٢١.

٣٤- دراسات الأوربيين عن الإيزيدية، الجزء الأول، هنري لايارد والإيزيدية، مركز لالش دهوك ٢٠٢٣.
٣٥- دراسات الأوربيين عن الإيزيدية، الجزء الثاني، أقدم وثيقة أوربية عن الإيزيدية، مركز لالش دهوك ٢٠٢٣.
٣٦- دراسات الأوربيين عن الإيزيدية، الجزء الثالث، الإيزيديون في كتاب النساطرة وطقوسهم، مركز لالش دهوك ٢٠٢٣.
٣٧- إبادة قبيلة الباسان، إزمير ٢٠٢٣.
٣٨- الأعمال الكاملة لبير خدر سليمان (ثلاثة أجزاء)، مركز لالش دهوك ٢٠٢٣.
٣٩- هةظثشكيا زمانيَ كوردي لطةل زمانيَن كةفن، (المشتركات بين اللغة الكردية واللغات القديمة) باللغة الكوردية/ محافظة دهوك ٢٠٢٣.
٤٠- الأعمال الكاملة للشاعر سعيد تحسين بك، طهران ٢٠٢٤.
٤١- مأساة إيزيدية سرحد في القرن التاسع عشر... مدونات أحمد كوكي أنموذجاً، منشورات محافظة دهوك ٢٠٢٤.

٤٢- مأساة الإيزيدية في نتاجات كبار الروائيين في القرن العشرين، دار كليم للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠٢٤.
٤٣- ضوء على العشائر الكوردية في كتاب (برية طور عابدين) للكاتب التان تان، دار الكليم للنشر، القاهرة ٢٠٢٤.
٤٤- الأرمن... إبادة ومواقف، ٢٠٢٤.
٤٥- إمارتا داسن وشيخان في العهد العثماني (١٥١٥-١٧٥٠) للدكتور نزار كولي، ترجمة إلى اللغة الكردية (لاتيني)/ تحت الطبع.
- يضاف إلى ذلك: سبعة كتب عن جينوسايد الإيزيدية، مركز دراسات البيشكجي، جامعة دهوك مطبعة جنكل طهران/ إيران ٢٠١٩.
١- الطريق إلى الجبل.
٢- مجزرة كوجو.
٣- المقابر الجماعية.
٤- الورود في الصحراء.
٥- مأساة الناجيات.
٦- إحصاء إبادة ٣-٨-٢٠١٤.
٧- صور الشهداء والمفقودين.
من نتاجاته (الكتب غير المطبوعة):

١- جانكير آغا.
٢- إمارة خالتا.
٣- حملات حافظ باشا.
٤- إمارة شيخان في عهد الأمير الشهيد علي بك الكبير.
٥- حملات الفريق عمر وهبي باشا.
٦- ثورة داود الداود في الوثائق البريطانية والعراقية.
٧- قبيلة الدنانية.
٨- حمو شرو وحماية الأرمن.
٩- جغرافية الإيزيدية، قبائلهم وتعدادهم.
١٠- إيزيدية ممان ودوملي، بالاشتراك مع الآثاري عبدالرقيب يوسف
١١- يوسف بك الحسنياني.
١٢- منشورات (مشورات) بيرانية الإيزيدية.
١٣- بيبلوكرافيا الإيزيدية.
١٤- تاريخ ختارة.
الموقع www.dawd-khatari.com

المحتويات

المقدمة ٥

الإبادة العثمانية للأرمن في (١٩١٥- ١٩١٦)..... ١٠

آرام يسرد مأساة والده دكران الأرمني..... ١٥

آزنيف الأرمنية ٩٢

موقف الإيزيديين من الأرمن في زمن المجازر ١٣٥

سركيس كيفو الأرمني ١٣٥

جانو كزبر الأرمني..... ١٦٧

تداعيات التجاء الأرمن إلى الإيزيديين ١٧١

المطران آدي شير الأرمني ١٩٨

احتجاز المطران تحت المراقبة..... ٢٠٤

كيفية إنقاذ المطران ٢١١

إيصال المطران إلى المناطق الإيزيدية ٢١٦

جميل كونى وتعاونه مع الأرمن ٢٢٢

الكاتب في سطور ٢٢٩

المحتويات..... ٢٣٩